الأمير عبد القادر الجزائري

المجاهد الصوفي

د. بركات محمد مراد

الأمير عبد القادر الجزائري المجاهد الصوفي

دار النشر الإلكتروني
Dar Al-Nashr Al-Electrony



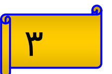
الأمير عبد القادر الجزائري

المجاهد الصوفي

تأليف

د. بركات محمد مراد

كلية التربية ـ جامعة عين شمس


٣

فهرس

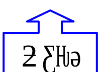
المقدمة

إن الحمد ، نحمده ونستعينه، ونعوذ با من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا. إنه من يهده ا فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له. والصلاة والسلام على سيدنا محمد عبد ا ورسوله، صاحب الجهاد الأعظم والمنهج القويم في الرقي الروحي الأسمى. وعلى آله وصحبه ومن سلك سبيله وعلى سنته.. آمين.

نعرض في هذا البحث لشخصية عربية وإسلامية من مغربنا العربي، اجتمعت فيها كثير من المآثر في زمن من الدهر غاضت فيه رحم العروبة أن تأتي بمثله وابتلى فيه العالم العربي والإسلامي برزايا التخلف وكل أنواع الاستعمار، وبرزت فيه هذه الشخصية كضوء ساطع متألق يشق ظلمات بعضها فوق بعض، فيبعث الأمل بعد طول يأس، ويبذر بذور الحرية والعدل في أرض أجدبت أو كادت من طول الظلم، فقد اشتهر الأمير عبد القادر الجزائري في بلاده بنزعته البطولية والحماسية والنضالية ضد الغزو الفرنسي لأرض الجزائر.

فعرفه أهل المغرب العربي مناضلاً وطنيا، وبطلاً صنديدا، ومقاتلاً شجاعا، قاوم الجيوش الفرنسية النظامية المدربة أحسن تدريب، والمجهزة بأحدث وسائل التجهيز العسكري والحربي حينئذ، فأظهر صلابة قوية وخبرة عسكرية، مع حداثة عهده بالحرب، وأحرز كثيرا من الانتصارات العسكرية والسياسية على العدو، ولكن الظروف والملابسات الاجتماعية والاقتصادية لبلاده وللأوضاع الدولية، وكذلك تآمر الدول الاستعمارية، حالت دون انتصاره انتصارا نهائيا؛ فوضع السيف بعد سبعة عشر عاما من الجهاد والمواجهة مع العدو، وتناول القلم مستعيضا به عن السيف في نوع من الجهاد أشد، محققًا للحديث الشريف ومعايشًا له بأن مجاهدة النفس والهوى هي الجهاد الأكبر بعد جهاد العدو الذي يعد جهادا أصغر، ومنتقلاً من مرحلة عسكرية وحربية إلى مرحلة ثقافية وفكرية وروحية، من التعليم والإرشاد والتربية تعد في حقيقة الأمر جبهة المواجهة الحقيقية مع العدو؛ حيث إن تكوين النفس الفكري والأخلاقي والروحي هو السبيل الحقيقي إلى الاستقلال والطريق الوحيد إلى التحرر.

ونحاول هنا أن نميط اللثام عن شخصية الأمير في مرحلتي جهاده الأصغر والأكبر أي كمجاهد للاستعمار الأوربي الحديث، ومعلم ومربي في مجال التصوف الإسلامي، فنلقي الضوء على تصوفه وأفكاره الصوفية وممارساته الروحية الحية والإيجابية، خاصة في هذه الحقبة الحالكة من حقب التاريخ العربي، فقد كان للأمير شخصية صوفية متحررة من قيود التقليد والتبعية، ومتطلعة إلى صفاء الشريعة الإسلامية وجوهرها النقي، فقد مارس الأمير التصوف نظريا وعمليا، وآمن بالتصوف الإسلامي طريقًا لتجديد الفهم الديني، وأسلوبا للحياة يمتزج فيها العمل بالنظر والنظرية بالتطبيق.



ومن هنا يأتي اهتمامنا بشخصية الأمير عبد القادر على وجه الخصوص، لأنه عبقرية اجتمعت فيها كثير من الخصال المفتقدة في عصرنا الراهن، فقد اجتمع فيه وتوحد الظـاهر والبـاطن والفكـر والتطبيق والمعتقد الحق والسلوك القويم، وجاء في زمن يشبه زمننا أطبقت فيه الظلمات، وادلهمت فيه المشاكل وتعانقت، أسطورة على غير مثال سابق يشهر سيفه في وجه الاستعمار الفرنـسي، ممتطيـا صهوة الأدهم، ببرنس يصفق جناحه مع الريح، مرتلاً هذه البطولة شعرا، يخلدها قصائد، ويتغنى بهـا أوزانًا ويضرب المثل على عودة الفارس العربي المنقذ، وهو يحارب في جبهتين في وقت واحد، جبهة الجهاد مع العدو في الخارج، وجبهة الجهاد مع النفس في الداخل، وهو في كلا الموقفين يعيـد، مـن ناحية تاريخ الفروسية العربية بمفهومها الحسي والمعنوي، ومظهريها المترابطين المادي والروحـي، ومن ناحية أخرى يفتح صفحة جديدة من هذه البطولة، لشعب عاش يتوارثها أبا عن جد وفيا لها، أمينًا عليها، حتى طوى أعنف أسطورة استعمارية بأروع صفحة بطولية.

ونقدم هذه الدراسة كأنموذج حي مشرق، ضرب أروع الأمثلة على أن الصوفية ليسوا بـالقوم الكسالى أو المتواكلين الهاربين من معترك الحياة إلى بطون الزوايا والخلوات، فارين من المواجهـة، فحياة الأمير بشقيها الجهادي والتعليمي، والعسكري والثقافي لتحطم تلك الادعاءات الزائفة، التي يحاول خصوم التصوف إلصاقها بالصوفية والسالكين لطريق القوم، فإذا كان شيخ الإسلام ابن تيمية، والعـز بن عبد السلام، وقبلهما كثير من شيوخ التصوف قد صدوا قديما جحافل التتار وغارات الصليبيين، فإن الأمير عبد القادر الجزائري هو المثال الصوفي الحديث الذي وقف في وجـه الاسـتعمار الأوربـي الغاشم، وحاول في نفس الوقت بناء دولة فتية حديثة مؤسسة على دعائم من العلم والثقافة، اكتملت فيها مظاهر الدولة الحديثة وصارت هي المثال المحتذى للجزائر الحديثة، تستوحيه في بنائها وتستلهمه في تكوين أبنائها.

ولاية باتنة، الجزائر.

في ١٥/٢/١٩٩٠





الفصل الأول

نشأة الأمير عبد القادر وجهاده

نشأة الأمير عبد القادر وجهاده

١) اسمه، ونسبه، وألقابه: هو الأمير عبد القادر[1]، بن محي الدين، بن مصطفى، بن محمد بن المختار، بن عبد القادر، يتصل بنسبه بالإمام الحسين بن علي بن أبي طالـب. أمـا كنيته: فهي أبو محمد. وأما ألقابه: فمتعددة وقد أطلقت عليه في مناسبات شتى بعـضها لأزمة طيلة حياته، وبعضها الآخر انتهى بانتهاء الفترة الزمنية التي يرمز إليهـا هـذا اللقب أو ذاك. فمن ألقابه: "أمير المؤمنين ناصر الدين[2] والأميـر[3]، والجزائـري[4]، وابن الراشدي، وابن خلاد[5].

٢) مولده ونشأته: ولد الأمير عبد القادر يوم الجمعة، في الثالث والعشرين من رجب، سـنة اثنين وعشرين ومائتين وألف للهجرة (١١٢٢ هـ) الموافق لشهر آيـار سـنة سـبعة وثمانمائة وألف للميلاد (١٨٠٧ م). وقد أجمع على ذلك معظم الذين أرخوا قديما وحديثًا لحياته كالأمير محمد ولده[6] والبيطار[7] والبغدادي[8].

---

[1] تحفة الزائر: لمحمد بن الأمير، وهو أفضل كتاب يؤرخ لحياة الأمير، وقد اعتمدنا عليه إلى حد كبير خاصة وأنه قد طبع في حياته. وقد ذكر فيه ابنه أنه تلقى هذا النسب الذي ينتهي إلى الإمام الحسين بن علي بن أبي طالـب كمـا رواه والده الأمير عبد القادر. انظر ص ٩٢٣ من تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر. شرح وتعليق الـدكتور ممدوح حقي، الطبعة الثانية: بيروت سنة ١٩٦٤م. وورد هذا النسب أيضا في بداية كتاب "ذكرى العاقل وتنبيه الغافـل "للأمير عبد القادر ص ٢٩: بيروت سنة ١٩٦٦م.

[2] تحفة الزائر: ص ١٥٦. وحيلة البشر: الشيخ عبد الرازق البيطار. تحقيق وتعليق محمد بهجة البيطار. الجزاء الثاني ص ٨٨٩. دمشق سنة ١٩٦٣. وهذا اللقب أسبغ عليه عند مبايعته البيعة الأولى الخاصة.

[3] وهو اللقب الأكثر شهرة، عرف به، وبقي يلازمه طيلة حياته.

[4] نسبة إلى وطنه الجزائر، وكان الأمير يحب هذا اللقب، خصوصا بعد نفيه عن بلاده.

[5] انظر ديوان الأمير عبد القادر. ص ٥٣ شرح وتحقيق د. ممدوح حقي. الطبعة الثانية بيروت سنة ١٩٦٤.

[6] تحفة الزائر: للأمير محمد. ص ٩٣٢.

[7] حلية البشر تاريخ القرن الثالث عشر: البيطار ص ٨٨٧.

[8] هدية العارفين: البغدادي جـ ١ ص ٦٠٥ المجلد الأول، الطبعة الثالثة. طهران سنة ١٩٦٧م.

أما مكان ولادته ففي قرية "القيطنة" بسهل "غريس" التي اختطها جده السيد مصطفى[9] قرب مدينة معسكر الواقعة في الجنوب الشرقي من وهران. وقد لعبت أسرته دورا سياسيا بارزا من عهد الأتراك، فدافعت عن استقلال القبائل النازلة في المناطق الداخلية ضد سيطرة الحكومة الرسمية[10].

وكان والد الأمير، من حماة الشريعة، ومن كبار أوليائها، ويلقب بالشريف لانتسابه إلى سلالة الرسول عليه الصلاة والسلام، فهو شيخ الطريقة القادرية، والفقيه المرابط، الذي كانت قبيلته قبيلة بني هاشم، تنظر إليه، نظرتها إلى ولي من أولياء ا .[11]

وقد اتخذ والده زاوية لطلبة العلم والقرآن؛ إذ كان أسلافه من العلماء الذين يرجع إليهم في مشكلات الأحكام؛ مما جعل له مكانة سامية لعلمه، وصلاحه، وكرمه، وشرف نسبه وحسبه، وقد تزوج والده محي الدين من أربع نسوة رزق منهن ستة أولاد، وكان الأمير عبد القادر، من زوجته الثالثة، وهي السيدة ابنة السيد محمد بن دوحة الحسنية[12].

ومن هنا نرى أن الأمير نشأ نشأة دينية، في بيت ينتمي إلى الطريقة القادرية؛ حيث كان والده محي الدين عالما متصوفًا، وقد أولى ابنه عناية خاصة لدراسة علوم اللغة والفقه والتفسير، بعد أن ألحقه بمدرسته في "القيطنة" حين بلغ الرابعة من عمره، وبدأت ملكاته العقلية تظهر، لتدل على نبوغ مبكر، فقد كان يقرأ ويكتب عندما كان في الخامسة من عمرة[13].

وقد بذل والده قصارى جهده في تثقيفه، لما أنس فيه من أمارات التفوق والنبوغ والذكاء فتمكن الفتى من اكتساب جانب عظيم من العلم واستطاع حفظ القرآن الكريم في سن مبكرة، ودرس الحديث،

---

[9] مصطفى بن محمد بن المختار: جد الأمير سافر إلى الحج مرتين. زار المسجد الأقصى ودمشق وبغداد وأجازه بالواسطة إمام اللغة والحديث الشيخ مرتضى الحسيني الزبيدي. ولما رجع إلى وطنه، اختط قريته المعروفة "القيطنة" بوادي الحمام عام ١٢٠٦ هـ / ١٧٩١ م ونشر الطريقة القادرية في الغرب الجزائري ولما وصل في المرحلة الثانية إلى "برقة" بليبيا، وهو عائد إلى وطنه، بعد تأدية فريضة الحج، توفي سنة ١٢١٢ هـ ودفن بعين فزال، انظر تحفة الزائر. ص ٩٢٩.

[10] كان المغرب العربي بما فيه الجزائر يتمتع بقسط من الاستقلال عن الحكومة المركزية بأستانبول، تحت الحكم العثماني، وذلك لضعف الأسطول التركي بعد القرن ١٧ فخضع لحكام محليين يشبهون حكام مصر من الباشوات والملوك. انظر. كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية.

[11] تحفة الزائر: للأمير محمد عبد القادر. ص ٩٣.

[12] الجزائر العربية أرض الكفاح المجيد: إحسان حقي. ص ٧٤. بيروت سنة ١٩٦١.

[13] تراجم مشاهير الشرق: جرجس زيدان. جـ ١. ص ١٨٢ الطبعة الثانية . مصر. ١٩١٠.

وأصول الشريعة، كما تلقى مبادئ الفقه وأصوله عن والده عمدة المحققين وعن غيره من العلماء الأجلاء[14].

وفي الرابعة عشرة من عمره، أصبح "حافظًا" أي يستطيع ترتيل القرآن الكريم عن ظهر قلب في حلقات العلم، وبين أساتذته، بعد أن تلقى من العلوم العقلية والشرعية، على كثير من أساتذة العلم وفقهاء الشريعة، خاصة عن والده، ذلك الفقيه والصوفي الكبير الذي أثرى حياته وأسس فكره تأسيسا أصيلاً، ولقنه مناهج اقتناص الفكر والحكمة، ورباه بمنهج صوفي وجداني، مكنه من بعد من اكتساب أساليب البحث والنظر، واستلهام الحقائق والمعارف.

٣) رحلته العلمية إلى وهران: وعندما بلغ أربع عشرة سنة أي في عام ١٨٢١ م، أرسله والده إلى مدرسة وهران[15]، فبقى فيها سنتين، يتعلم العلوم العربية والدينية فجد في تحصيلها ودرس الفقه والحديث، وأصول الشريعة على يد أستاذه أحمد بن طاهر البطيوي قاض أرزيو، الذي علمه بالإضافة إلى ذلك الرياضيات، والجغرافيا والتاريخ، واطلع أثناء ذلك على كتب الفلاسفة والمفكرين القدماء والمحدثين.

ثم عاد إلى بلدته "القيطنة" بعد سنتين من الدراسة والتحصيل المكثف ليتزوج ابنة عمه وفقًا للشريعة الإسلامية، وعلى عادة أهل البلاد المحبذين للزواج المبكر، وبدأ حينئذ يلقي دروسا في جامع الأسرة، خاصة تفسير القرآن الكريم، وكان هذا يتفق وطموحه؛ حيث كان يصبو إلى أن يصبح مرابطًا مثل والده. ولم يكف أثناء ذلك عن التحصيل والتثقيف الذاتي المستمر، فضلاً عن اكتسابه براعة نادرة في فنون الفروسية والقتال وركوب الخيل، ففي سن السابعة عشرة من عمره اشتهر بشدة البأس، وقوة البدن والفروسية، حتى كان يشار إليه بالبنان بين الفرسان لمهارته في ركوب الخيل واللعب على ظهورها، فبرز بذلك على جميع أقرانه" وأقرا له القاصي والداني من الفرسان أنه أبرع من قبض على عنان في بلاد الجزائر"[16].

وكان كعادة النبلاء من أهل البلاد شغوفًا بتزيين سلاحه، فقد كانت بندقيته التونسية الطويلة، مرصعة بالفضة، أما مسدسه فكان مرصعا بالجواهر وكان لسيفه الدمشقي غمد من فضة[17].

وقد مارس رياضة الصيد والقنص في الغابات، وساعدته طبيعة بلاد الجزائر الجميلة، على قرض الشعر، على الرغم من عدم دراسته له، فمارسه بالسليقة والإلهام، وبرع فيه، وإن لم يحل كل

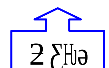
---

(14) تحفة الزائر: ص ٩٣٢. وكريم ثابت: الأمير عبد القادر الجزائري وكيف نؤدي به أميرا على الجزائر. مجلة الهلال. مصر سنة ١٩٣٣ مجلد ٤١ جـ ٨ ص ١٠٣٠، أعيان دمشق: الشطى ص ١٧٧.

(15) تحفة الزائر. ص ٩٣٢.

(16) الأمير عبد القادر الجزائري: وديع نار. مجلة المورد الصافي، مجلد ٢. جـ ٣. ص ١٩٨. بيروت سنة ١٩١١.

(17) حياة الأمير عبد القادر: شارل هنري تشرشل. ترجمة وتعليق د. أبو القاسم سعد ا . ص ٤٠ تونس سنة ١٩٧٤.



ذلك دون انكبابه على الدراسة والتحصيل، بل ساعده اهتمام أبيه وإكباره له؛ حيث كان يستشيره في كل أعماله، خاصة الاجتماعية والسياسية فضلاً عن الدينية، على تكوين شخصيته مبكرا والوصول إلى مرحلة النضج الفكري والروحي في سني حياته الأولى.

ويبدو أن هذه المكانة العلمية والدينية التي كان يتمتع بها مع والده أوغرت صدر بعض معاصريه، فوشوا به إلى حسين بك حاكم وهران، الذي أمرهم بالسكن في وهران، وحدد إقامتهما، بعد أن بث حولهما الرقباء والجواسيس يحصون عليها حركاتهما وسكناتهما، ويبدو أن الحكومة التركية قد بدأت تتخوف من تلك الشعبية الكبيرة التي كانت تحرزها أسرة الأمير عبد القادر، خاصة وأن الأمير كان قد وصل إلى قناعة تامة بضعف الأتراك السياسي والعسكري، مع اتساع استغلالهم للطبقات الشعبية الكادحة[18].

وقد استفاد محي الدين وولده عبد القادر من هذه العزلة المفروضة عليهما، وعلى عادة الصوفية وأهل العلم قد خصصا أوقاتهما للدراسة والتحصيل وإعمال الفكر وتجلية الخلوة وتعميق العبادة.

وعندما أفرجت تركيا عن والده وأذنت له بأداء فريضة الحج في عام ١٢٤١ هـ / ١٨٢٥ م. اصطحبه معه دون سائر إخوته، نظرا لما يتسم به من نباهة وفطنة، إلى جانب معارفه الواسعة وشجاعته الحكيمة.

٤) رحلته لأداء فريضة الحج وأخذه من علماء الشرق: وقد غادر الأمير ووالده وهران في ربيع عام ١٢٤١ هـ ووصلا تونس مارين بالمدية وقسطنطينية، وبعد رحلة بحرية استغرقت حوالي خمسة عشر يوما وصلا إلى الإسكندرية مع حاشيتهما، فقد انضم إليهما جمع من الفرسان لحراستهما في الطريق؛ مما أقلق الوالي التركي (الداي) الذي لم يجد بدا من السماح لهما بالسفر، فزارا القاهرة، ورأيا الأمير محمد علي باشا لأول مرة، وقد أكرمهما، وأحلهما محلاً رفيعا[19].

وبعد وصولهما إلى مكة أديا فريضة الحج ثم قصدا المدينة المنورة لزيارة الحضرة النبوية الشريفة، ومنها توجها إلى دمشق بصحبة الركب الشامي.

وقد مكثا في دمشق عدة أشهر تمكن الأمير أثناءها من الحضور في حلقات الدروس العلمية التي كان يدرس فيها كبار العلماء بالجامع الأموي وغيره، وتعرفا على مشاهير الصلحاء والعلماء

---

[18] الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري. ص ٤١ تونس عام ١٩٨٣.

[19] تراجم مشاهير الشرق: جرجس زيدان . جـ ١ ص ١٨٣، دائرة المعارف: بطرس البستاني مجلد ١١ ص ٩١٧.

الأعلام، وكان يقضيان جل وقتهما في الجامع الكبير دائبين على القراءات الدينية[20]، وتمكنا أثناء ذلك من قراءة الحديث، وصحيح البخاري على الإمام المحدث عبد الرحمن الكزبرى[21].

وقد أخذ الأمير في أثناء إقامته بدمشق الطريقة النقشبندية عن العـارف بـا الـشيخ خالـد النقشبندي السهرودي، وكان يكثر التردد إليه، فسمع منه علوما شتى في التوحيد والتصوف[22] وحـين سافر الأمير إلى بغداد[23] وزار ضريح القطب الكبير عبد القادر الجيلاني (٤٧١ هـ - ٥٦١ هـ) أخذ الأمير الإجازة بالطريقة القادرية، ولبس الخرقة[24] من يد الأستاذ محمود القادري الكيلاني نقيـب الأشراف، وخليفة السيد عبد القادر الجيلاني.

وبعد أن مكثا ثلاثة أشهر في بغداد، عادا إلى دمشق، ومنها إلى مكة والمدينـة؛ حيـث أديـا فريضة الحج للمرة الثانية، وعند الانتهاء من أداء المناسك، بدأ طريق العودة حيث عرجا على القاهرة، فأقاما فيها مدة اجتمعا في أثنائها بعلمائها وفضلائها[25].

وبعد غياب دام قرابة عامين في أوائل عام ١٢٤٣ هـ حلا بقريتهما "القيطنة" بعد أن أتاحـت هذه المرحلة المشرقية للأمير فرصة الاطلاع على أوضاع البلاد العربية، وسير حياتهـا فـي الحكـم والإدارة ومختلف الميادين السياسية والاجتماعية والثقافية، وشهد نهضة مصر الحديثـة، والتطـورات العصرية التي أدخلها محمد علي باشا إليها؛ مما سيدفعه عندما سيتولى إمارة البلاد "أن يبني دولة على هذه الأسس نفسها"[26].

وقد تمكن الأمير في هذه الرحلة العلمية وتلك السياحة الدينية، من تحصيل كثير من المعـارف والعلوم القديمة والحديثة، فقد تمكن فضلاً عن إحاطته بكثير من العلوم الدينية كالحديث والتفسير وعلوم التصوف والأصول وعلم الكلام من قراءة كتب الفلسفة كرسائل إخوان الـصفاء. وأعمـال أفلاطـون وفيثاغورس وكتب أرسطو وابن سينا[27]، وغيرهما بالإضافة إلى تعمقه بالقراءة والممارسة لمؤلفـات الصوفي الكبير "محي الدين ابن عربي" الذي سيتأثر به إلى حد بعيد في تصوفه.

---

(20) تحفة الزائر. ص ٩٣٢.

(21) هو أبو المحاسن وجيه الدين عبد الرحمن بن محمد بن علي الرحمن الكزبرى (١١٨٤ – ١٢٦٢ هـ) الدمشقي الشافعي، عالم محدث، ولد بدمشق وتوفى بمكة: معجم المؤلفين: عمر رضا كحالة جـ ٥ ص ١٧٧ دمشق سنة ١٩٦١.

(22) أعيان البيان: السندوبي ص ١٧١ الطبعة الأولى. مصر عام ١٩١٩ م.

(23) حياة الأمير عبد القادر: تشرشل . ص ٤٥.

(24) ما يلبسه المريد من يد شيخه الذي يدخل في طريقته ويتوب على يديه.

(25) الأمير عبد القادر. كريم ثابت. مجلة الهلال. مجلد ٤١ جـ ٨ ص ١٠٣٦.

(26) تطور السياسة الفرنسية في الجزائر: صلاح العقاد. ص ٨ منشورات جامعة الدول العربية. مصر سنة ١٩٦٠.

(27) الأمير عبد القادر حياته وأدبه: رابح بونار ص ١٤ مجلة (آمال) الجزائرية. العدد ٨ سنة

وبعد عودته من الشرق أخذ في ملازمة الخلوة، ولم يفارق مكتبته الضخمة، التي زودها بكثير من كتب الشرق، والتي كان يعتكف فيها للقراءة والإطلاع، ولا يتركها إلا للصلاة أو لتناول الطعـام، ولكن لم تطل عزلته العملية، فقد كانت هذه مرحلة الإعداد والتكوين، وبدت في حياته مرحلة أخرى من الجهاد والعمل الوطني.

5) الفارس المجاهد: وهنا تبدأ مرحلة هامة وخطيرة في حياة الأمير عبد القادر الجزائـري هي مرحلة الجهاد المسلح ضد تلك الجيوش الفرنسية الغاشمة التي اجتاحت الجزائر. فقد كان يتولى حكم البلاد في عهد الأمير "دايات" عاصرهم الأمير مثل "أحمد باشا " و "عمر باشا" و "علي خوجة" وآخرهم "حسين باشا" الذي وقعت بينه وبـين "دوفيـال " Deval قنصل فرنسا منافرة أدت إلى أن يضربه في وجهه بمروحته، واعتبرتها فرنـسا إهانـة بالغة واستغلت هذه الحادثة إلى أقصى حد ممكن، ويبدو أنها كانت تنتظـر مثـل هـذه الحادثة بصبر نافذ، فاستدعت سفراء الدول الأجنبية وأخطرتهم بالإهانة التي لحقت بمـا أسمته "شرف الملك"، وجعلت من هذه الحادثة سببا مباشرا لاحتلال الجزائر[28].

ودبرت فرنسا الغزو المسلح، وكانت حادثة المروحة، هي "القشة التي قصمت ظهـر البعيـر" وعينت فرنسا وزيرها للحربية الماريشال "ديبور مون" قائدا عاما للحملة والأميـرال "دوبـري" قائـدا للأسطول المؤلف من أربعين ألف جندي، وأربعة آلاف فارس، مع أحدث المعدات العسكرية حينئـذ، وهاجمت على ميناء سيدي فرج في ١٣ حزيران عام ١٨٣٠ م وبعد حروب ووقائع مهولة دامت ثلاثة أسابيع استطاعت الحملة احتلال العاصمة" الجزائر" [29]. وسهل عملهم" فقدان الروح القوميـة، وفـشل التعبئة الدينية أي الاختلافات بين المسلمين"[30].

[28] كانت هناك أسباب خفية لهذا الاحتلال، أهمها محاولة فرنسا تعويض بعض مستعمراتها التي فقدتها، إبان حـروب الثورة الفرنسية ونابليون، وفي معاهدة باريس عام ١٨١٥م حيث تنازلت لإنجلترا عن معظمها: انظر: تطور الـسياسة الفرنسية في الجزائر. صلاح العقاد. ص ٣ كذلك أرادت التخاص من آثار معاهدة فيينا، فاحتلال الجزائر سـيكون أول عمل تخالف به فرنسا القرارات التي فرضها عليها الحلفاء عام ١٨١٥ م. كذلك أرادت حكومة البوربون ذات النزعـة الدينية أن تفتح بابا النصرانية في إفريقيا عن طريق الجزائر التي تتزعم الجناح الإسلامي في شمال إفريقيا، وشـجعها على ذلك أن معظم وحدات الأسطول الجزائري قد تحطمت في معركة "نافارين" البحرية، حين ذهبـت لنجـدة الدولـة العثمانية في حربها مع دول أوروبا عام ٢٤٣ هـ /١٨٢٧ انظر المنجد في الأعلام: الزركلي ص ٥٢٥ جـ ٩ مـصر سنة ١٩٥٤.

[29] الجزائر العربية أرض الكفاح المجيد: إحسان حقي. ص ٦٥.

[30] القرن التاسع عشر: روبيرت شنيرب. ص ٤٢٨ ترجمة يوسف أسعد داغر. بيروت عام ١٩٦٩م.

وتم وضع وثيقة الاستسلام[31] فوافق "الداي" الحاكم على شروطها، ووقعها ثم سلم المدينة إلى القائد العام صبيحة يوم ٥ تموز عام ١٨٣٠ م، فدخلها الفرنسيون ونكسوا رايـات الدولـة العثمانيـة، وأخذوا في الاتصال بالدولة العثمانية لتسلمها الجزائر، وعمل لويس فيليب الذي استمر حكمه إلى عـام ١٨٤٨ م على إبقاء الجزائر بيد فرنسا[32].

أ – مبايعة الأمير بالإمارة:

وحين يئس أهل الجزائر من نجدة الدولة العثمانية، وظهر لهم عجز جارهم سـلطان المغـرب الأقصى، المولى عبد الرحمن، الذي أنذرته فرنسا بالعداوة، لم يجدوا من برد عائلة العـدو الغاصـب، ويرفع لواء الجهاد ضده، وتتوفر فيه شروط الإمارة، وقيادة الشعب، غير أسرة الأمير وعلى رأسـها والده الموقر من طرف الجميع "محي الدين" الذي جمع إلى شرف الأرومة، وكرم الأخلاق، شـجاعة وصولة وإقداما، فاختاروه أميرا عليهم، غير أن محي الدين اعتذر لهم بكبر سنه، متهيبـا مـن حمـل المسئولية العظمى، وقبل القيام بأمر الجهاد، وترك مسؤولية الإمارة، فأصروا عليه وهددوه بالقتـل إن امتنع، فرضي على أن يتولاها ابنه عبد القادر، فقبلوا بإمارته مسرورين[33].

وكان الأمير عبد القادر حينئذ يحارب الفرنسيين، في مكان يدعى بحصن فيليب، فقصدوه، ولم يتردد حين عرضوا عليه اقتراح أبيه، قائلاً بروح الواثق بنفسه "أنا لها، أنا لها"[34].

وعقدوا له البيعة الأولى أو الخاصة في ٣ رجب عام ١٢٤٨ هـ وذلك تحت شجرة الـدردارة الموجودة بوادي فروحة من غريس، شجرة عظيمة كان أهالي غريس يجتمعون تحتها للشورى، وتمت البيعة على غرار بيعة الرضوان التي بايع فيها الصحابة رسول ا صلى ا عليه وسلم تحت شـجرة الحديبية، وذلك تيمنًا بتحقيق النصر واقتداء بالرسول العظيم.

وبعد أن بايعه والده لقبه "بناصر الدين" وخاطب المجاهدين بقوله: "إليكم سلطانكم الذي أشارت إليه نبوءات الأولياء وإلهامات الأتقياء. هذا هو ابن الزهراء، فأطيعوه كما أطعتموني واجتنبوا جفـاءه، نصر ا السلطان نصرا عزيزا مقتدرا"[35].

---

(31) تحفة الزائر . ص ١٣٤ ، ١٣٥.

(32) دائرة المعارف. بطرس البستاني مجلد ٦. ص ٤٥٣ بيروت سنة ١٨٨٢م.

(33) انظر : قصة تهديد أهل الجزائر لمحي الدين بالقتل إن امتنع عن قبول الإمارة وتحمل مسئولياتها، وكيفية تنازله لولده عبد القادر في كتاب تشرشل. ص ٥٦.

(34) تحفة الزائر: للأمير محمد بن عبد القادر. ص ١٥٥.

(35) الأمير عبد القادر وكيف نودي به أميرا على الجزائر: كريم ثابت مجلة الهلال المجلد ٤١ جـ ٨ ص ١٠٣٢ مصر عام ١٩٣٣ م.

فقال عبد القادر: وأنا بدوري لن آخذ بقانون غير القرآن. لن يكون مرشدي غير تعاليم القرآن، والقرآن وحده فلو أن أخي الشقيق قد أحل دمه بمخالفة القرآن لمات"[36].

وبعد الانصراف، انفرد أفاضل العلماء لتحرير صك البيعة، فكتبه في مجلسهم، العالم" محمد بن عبد القاطر" الشهير بابن آمنه خال الأمير[37] وتحاشى الأمير عبد القادر لقب الخلافة، كي لا يصطدم بالخليفة العثماني، ويتحدى سائر أمراء المسلمين بلا جدوى، فبويع بالإمارة.

ولما شاع أمر البيعة الأولى الخاصة، بدأت الوفود تتوالى، من كل جانب، فانعقد مجلس عام، حضره جمهور غفير من الأشراف والعلماء والرؤساء من كل القبائل، وجرى فيه عقد البيعة الثانية في قصر الإمارة في ١٣ رمضان عام ١٢٤٨ هـ، واختار الأمير مدينة "معسكر"[38] لإقامته، تأنيسا لأهل "غريس" وتطييبا لنفوسهم، لأنهم كانوا دعاة هذه الإمارة منها حركته ونهضته[39].

ب – بدء الجهاد المقدس:

وصار الناس بعد ذلك يتشوقون إلى تلك الساعة التي يدق فيها نذير النفير يدعوهم إلى الجهاد ولم يمهلهم الأمير قليلاً، حتى نادى فيهم مناديه، فهرعوا إليه من كل صوب وحدب، وخرج الأمير بجيشه الفتي بعد أن نظمه ودربه، فصال في الميدان وجال في مختلف أنحاء البلاد، وقد قام بعمل مزدوج: توحيد صفوف الشعب ومحاربة الفرنسيين. لعب دور القائد العسكري فقاوم الفرنسيين، ولعب دور القاضي ففك المنازعات بين القبائل، ولعب دور السياسي، فألف بين الصفوف المتفرقة. ونازل الفرنسيين في كثير من المعارك، وانتصر عليهم في أغلب الوقائع خصوصا في مدينتي "وهران" و "مستغانم" حيث أبلى فيهما البلاد الحسن[40].

وطارت شهرته في البلاد، حتى عمت أنحاء القطر الجزائري فأتته البيعة من سائر الجهات. وهرع الناس زرافات وجماعات إلى عاصمته "معسكر" لينضموا إلى صفوف الجيش كي تتاح لهم فرصة المشاركة في معركة الجهاد المقدس والدفاع عن حوزة الوطن.

وتوالت انتصارات الأمير وجيشه الفتى، خاصة بعد أن اجتمعت عليه القلوب والتفت حوله الهمم، ووجدت فيه الأمة المنقذ الذي يحمل السيف بعد أن حمل القلم؛ مما اضطر الجنرال "ديمشيل"

---

(36) تشرشل: ص ٥٨، ٥٩.

(37) تحفة الزائر . ص ١٥٧ – ١٥٩.

(38) على بعد عشرين كيلومترا إلى الجنوب الشرقي من مدينة وهران.

(39) تحفة الزائر: ص ١٦٦.

(40) الأمير عبد القادر: د. يحي بو عزيز. ص ٥٠ ، ٥١.

حاكم وهران أن يعقد معه معاهدة في ١٧ شوال عام ١٢٤٩ هـ/ ١٨٣٤ م عرفت بمعاهدة ديميـشيل" Desmi [41].

جـ - بناء الدولة الحديثة:

وقد صرف الأمير أثناء هذه المعاهدة همته إلى إنشاء دولة قوية على مثال الـدول الحديثـة، متحدة لها كيانها ودستورها ونظامها، وقد عمل على إصلاح الأحوال وتنظيم الجند في تلـك الإمـارة واستعدادا لمعاودة القتال عند الحاجة، وألف في هذه الفترة كتابه "وشاح الكتائب وزينة الجيش لمحمـد الغالب "واضعا فيه الأسس والمبادئ لنظام الجندية الجديدة.

وقد اهتم الأمير بأحوال بلاده، على الرغم من انشغاله بالجهاد والقتال مع العدو علـى عـدة جبهات، فجعل من تمصيرها وتعميرها الأمر الأساسي لنجاح الثورة وتركيز الحكم ولذلك لم يأل جهدا في تشييد الحصون وإقامة القلاع، كما لم يفتأ في صنع السلاح، وإنتاج الذخيرة الحربية، فـي الوقـت الذي يعمل فيه على تنظيم صفوف الشعب، وتوحيد الأمة حوله، دفاعا عن الوطن وحماية للدين، ومن هنا استطاع أن ينشئ دولة فتية بكيانها، ودستورها ونظامها وجيشها واستطاع أن يـسد كثيـرا مـن الفجوات في بنائه الإداري والعسكري؛ مما جعل مؤرخًا فرنسيا يقول:

"كان يقيم العدالة بحزام فيتخذ مع أعدائه القدماء سياسة التسامح، كان الأمن مسيطرا سـيطرة تامة على الطرق في كل ولاية، الأمر الذي جعل الأهالي يرددون هذا المثل: يستطيع الطفل أن يطوف ملكه منفردا، على رأسه تاج من ذهب، دون أن يصيبه أذى[42].

كما يقول: لقد كون جيشًا من المشاة والمدفعية، وصنع البارود والبنادق، وبدأ العمل في تطبيق مشاريعه التجارية والاقتصادية والتصنيعية في كل من "تنسى" و "أرزيو" ويذكر عنه أنه "كـان ذكيـا حازما، وعاملاً مجدا لا يبدأ عملاً إلا أكمله، لقد كان يتمنى أمرا واحدا وهو أن يكمل كـل مـشاريعه الخلاقة التقدمية قبل مفارقة الحياة"[43] وقد عمل على الاستفادة من خبرة المـدربين الأجانـب الـذين استقدمهم لتدريب جنوده، واستفاد أيضا مما خدموا في صفوف الجـيش المـصري والتونـسي مـن المسلمين، ليخرج مدربين من أبناء وطنه، ونظم جيشه بما يلائم إمكانات الدولة، ماديا وبشريا، فقـسمه إلى ثلاثة أصناف[44]: جعل على كل صنف رئيسا وهم: الفرسان، والمشاة، والمدفعيون. وأنشأ مصانع الأسلحة لتزويد جيشه بما يحتاجه منها فضلاً عن معامل الذخيرة فبعد أن ثبت حصن" تاكدمت" أقام فيه

---

[41] نص المعاهدة في "تحفة الزائر" ص ١٨٥. وتشرشل: ص ٧٨.

[42] عن تاريخ المقاومة الجزائرية نقلاً عن د. يحيى بو عزيز. ص ٥٦.

[43] الأمير عبد القادر الجزائري رائد الكفاح: د. يحيى بو عزيز. ص ٥٤.

[44] تحفة الزائر. ص ١٩٢.

صناعة البارود والسيوف وغيرها من مواد وأدوات الحرب وابتنى في كل من "معـسكر" ومليانـه "و "المدية" مصانع للأسلحة ومعامل بارود ورصاص، أيضا، وأنشأ مصنع المدافع بتلمسان.

وكان يحرص على تحديث الجيش وأدواته الحربية وما وسعة ذلك. كمـا شـيد كثيـرا مـن الحصون أشهرها حصن "سعيدة" و "سبدو" وبوغاز "و "سباو" و "عريب" و "طازه" ولقـد نجـح فـي سياسته التي تربأ عن الشعور بالوحدة القبلية إلى الشعور بالوحدة الوطنية وتجاوز الطبقية بين الحـاكم والمحكوم[45].

وبعد أن اتسعت رقعة ملكه، أنشا ثماني مقاطعات أو أقاليم يرأس كل منهـا "خليفـة" يعينـه الأمير، وقسم المقاطعة إلى دوائر، يحكم الواحدة منها "آغا" وتضم الدائرة عددا من القبائل، على رأس القبيلة منها "قائد" ثم تتفرع إلى عشائر، فيحكم العشيرة. شيخ وهذا التنظيم الهرمي، الذي أخـذ بعـين الاعتبار العلاقات البشرية والاجتماعية العامة، والسائدة حينئذ، لم يتمكن الفرنسيون من اختراع ما هو أفضل منه عندما آل حكم البلاد إليهم فاكتفوا باعتماده كما هو[46] أما عن كيفية إدارة الأميـر للـبلاد فكانت على النحو التالي:

كان الأمير يصدر أوامره إلى خلفائه، فتنتقل بالتدريج إلى من دونهم، وكذلك ترفـع القـضايا الكبرى من الشيخ إلى من يليه في المنصب، حتى تصل إلى الأمير. أمـا القـضايا الأخـرى فيقـوم المسئولون بالنظر فيها، كل حسب صلاحياته المنوطة به.

ويصف كاتبه الخاص "قدور بن رويلة" عدالته بأنها كانت لينة وصارمة في الوقت ذاته، يحكم بمقتضى الشريعة، فلا يتسامح من يرتكب خطأ كبيرا، ولا يتورع عن معاقبة ابنه والاقتصاص منه، إذا اقترف ما يستحق المعاقبة والقصاص. واشترط في قضائه أن يعرف الواحد مـنهم بـالعلم، والتقـوى والفضل، والنزاهة، وأن يفصل في القضايا التي تعرض له بموجب الشريعة الإسلامية[47] وكان أثنـاء ذلك يشتبك مع العدو في كثير من المعارك العسكرية الطاحنة، ورغم عدم الكفاءة بين جـيش الأميـر المجهز على عجل وبالإمكانات المتاحة، وجيش الجنرال "تريزيل" المجهز بكل أدوات القتـال لدولـة عظمى كفرنسا حينذاك، فإن الأمير استطاع بفضل مهارته وقوة عزيمة جيشه أن يهزمه في معركـة" سيق" بغابة حرسن مولاي إسماعيل، ويكبده خسائر فادحة، بل وينزل ضربات قاسـية فـي معركـة "المقطع" الشهيرة شرق مدينة أرزيو، بتلك الفلول الهاربة من قوات العـدو[48] وتوالـت الانتـصارات

---

[45] الأمير عبد القادر: د. محفوظ قداسن. ص ٤٨.

[46] الأمير عبد القادر الجزائري: إسماعيل العربي. ص ٢٢.

[47] ديوان الأمير عبد القادر. تحقيق د. زكريا صيام. ص ٢- الجزائر. عام ١٩٨٦.

[48] وتجلت من قبل بسالة الأمير الحربية ومواهبه العسكرية في معارك ثلاث مشهورة هي: خنق النطاح الأولى. وخنق النكاح الثانية، وبرج رأس العين. وتم له الانتصار فيها. وذكرها في قصيدة مطلعها:

ضربة قاضية للجيش الفرنسي، الذي جعل يتحاشى مواجهة الأمير في الميدان، ويحجم عن الاشتباكات مع قواته، لأن معركة المقطع، السابقة، تركت آثارها السيئة فيه، فأعان هذا الإحجام الأمير في ميـدان الاستعدادات العسكرية، وكذلك في الاهتمام ببناء تلك الدولة الحديثة.

ولو أتيحت للأمير عبد القادر فسحة من الوقت واسعة لأصبحت دولته من الدول الكبرى، لهـا مكانتها في العالم، ولكن الفرنسيين قوم غدارون لا يعرفون للعهود قيمة، ولا يقدرون المواقف الإنسانية حقها، فكانوا كما قال الأمير "شكيب أرسلان": كانت معاهدات الدول الاستعمارية مع أهالي القطار التي نصب أعينها الاستيلاء عليها، هي في الغالب محاط استراحة بين الحملة والحملة، ومنازل استجمام بين مراحل الحرب لا غير، بحيث لا تعدم عذرا لدى توفر القوة في نقض المعاهدات التي لم تبرمها منـذ البداية إلا على نية النقض"[49].

فعمدوا إلى نقض الهدنة بحجة من الالتوءات والأباطيل، من أجل السيطرة الفرنسية على قبائل الدوائر والزمالة، اللاتي أعلنت موالاة "تريزيل" حاكم وهران، الذي نقض الهدنة، فنادى الأمير عبـد القادر بالجهاد العام، وهو يردد ""هيا بنا أيها المسلمون إلى الجهاد، وهلموا إليه باجتهاد. وارفعوا عـن عواتقكم برود الكسل، وأزيلوا من قلوبكم دواعي الخوف والوجل. أما علمتم أن من مات مـنكم مـات شهيدا، ومن بقى نال الفخار وعاش سعيدا" [50].

وقد استجاب الناس لندائه، وتجندوا للجهاد، وما هي إلا جولات وصولات في الميـدان حتـى أدرك الفرنسيون أنهم لا قبل لهم بهذا الأمير وقوته رغم ما حاولوه مـن بـث التفرقـة، وزرع روح التخاذل بين جماهير الشعب.

وإزاء التقدم العظيم الذي حصل عليه الأمير في كل ميادين القتال، اضطر "الجنـرال بيجـو" "Bugeaud" حاكم وهران الجديد، إلى عقد معاهدة أخرى مع الأمير سميت بمعاهدة" تافنـا" Tafna في ١٤ صفر عام ١٢٥٣ هـ/ ١٨٣٧ م. وكانت هذه المعاهدة بالنسبة للأمير، وهو المـدرك لتخلـف بلاده الشديد، فرصة للبناء الذي دأب عليه منذ فترة، فخلال سنتي ٣٨، ٣٩ دفع بخططـه الإصـلاحية إلى الأمام بسرعة فائقة وكان هدفه الأسمى هو جعل قبائل الجزائر – وقد كانت قد تفشت فيهم القبليـة

توسد بمهد الأمن قد مرت النوى		وزال لغوب السير من مشهد الثوري.

الديوان: ص ٥١.

[49] حاضر العالم الإسلامي: أستودار لوثروب. ترجمة عجاج نويهض. تعليق الأمير شكيب أرسلان مجلة ٢ ص ١٧٠ القاهرة عام ١٣٥٢ هـ.

[50] تحفة الزائر. جـ ١ ص ١٥٠، ١٥١.

والتشرزم، شعبا واحدا" واستمالتهم إلى المبادئ الإسلامية، واستدعائهم إلى فضائل أهل القرون الأولى للهجرة، وإيقاظهم من الغفلة[51].

وكان اعتماد الأمير على الزكاة والضرائب والأموال التي تجود بها نفوس المسلمين، هي مصادره المالية في تجهيز المجاهدين، وبناء دولته الفنية هذه، وقد بنى دارا لصك النقود وجعلها من النحاس والفضة، واضعا عليها شعار الإسلام، وقد اهتم بالجانب الصحي فأنشأ العيادات والصيدليات ووفر الأطباء في مختلف أنحاء إمارته. وكان حريصا في كل ذلك على ربط الإخوة الإسلامية بين أبناء الجزائر، ضاربا المثل والنموذج بنفسه في التحلي بمكارم الأخلاق، لمواجهة الهجمة الشرسة التي يقوم بها العدو، للعصف بذلك المجتمع الإسلامي البسيط، فكان الأمير مثال القائد المتواضع، والمثقف في وقت يحتاج فيه المسلمون لتسخير ما يمتلكونه في سبيل ا ورفع راية الجهاد، فقد صرح "الجنرال بيجو" بعد مقابلة الأمير بقوله: "تأملت هيأته ولباسه الذي لم يكن يغاير لباس أبسط العرب، له هيئة الناسك الورع"[52].

كما أورد "توستان مانوار "شهادة مفادها أن الأمير" كان يتربع على حصير تحت شجرة متكئًا على صندوق خشبي شبيه بالصناديق التي نراها لدى جميع الباعة"[53].

وروى "قدور بن رويلة " "كاتبه أنه "كان زهيدا في دنياه لا يتعلق بحطامها ويجهد نفسه في الابتعاد عن ذلك، طعامه عادي بسيط، لباسه كذلك، يقوم الليل مصليا ومسبحا، ولا أفضل عنده من الصلاة والصوم تحاشيا للتردي في الخطيئة."[54]

وفي الواقع فإن الأمير عبد القادر المحارب، والخطيب، والدبلوماسي، ورجل الدولة والمشرع "تكمن أسرار قوته في عظمته العقلية"[55] فرسائله وخطبه وأحاديثه كلها تحمل طابعها الخاص في الجدة والأصالة، وكانت مكانته العلمية والدينية من أكبر أعوانه على تأسيس الحكومة التي أسسها وتلك الخطوات الكبيرة التي قطعها في الإصلاح والتعليم، فقد فتح المدارس وبني الزوايا والمساجد في القرى والمدن، واهتم بالتعليم وجمع المخطوطات، بحيث استطاع أن يقتني مجموعات ضخمة من أندر الكتب والمخطوطات، ويضعها في أماكن أمينة في الزوايا والمساجد، موكلاً حفظها إلى الطلبة وأهل العلم الذين كانوا موضع ثقته[56].

---

[51] تحفة الزائر. جـ ١ ص ٥٣.

[52] الأمير عبد القادر: محفوظ قداسن. ص ٤٧.

[53] الأمير عبد القادر: محفوظ قداسن. ص ٤٨.

[54] الأمير عبد القادر: محفوظ قداسن. ص ٥٠.

[55] تشرشل. ص ١٤٨.

[56] تحفة الزائر: جـ ١ ٤٢٨.

وقد كان الأمير، وهو من المشتغلين بالعلم والتعليم، يدرك أن العلم والثقافة عنصر أساسي في بناء المجتمع، من أجل هذا كان يتسامح في تعامله مع طلبة العلم، فيعفيهم مـن الـضرائب، ويكـافئ المجتهد منهم مكافآت نقدية وعينية سخية، وله أقوال في هذا الصدد تبين مدى اهتمامه بطـلاب العلـم فكان يقول: أشعر شعورا قويا بأهمية العلم، لدرجة أنني عفوت مرات عديدة عن بعض الطلبة الـذين استحقوا الموت"[57]

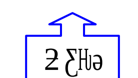
ونراه يولي عناية كبيرة للكتب المطبوعة والمخطوطة، فبلغ منه أن يصدر عقوبات رادعة في حق من يعبث بالكتب أو يعمل على إفسادها، وقد اهتم جنوده بإحضار مـا تقـع عليـه أيـديهم مـن مخطوطات بعد انتهاء المعارك والعودة بها إلى الأمير كما أصدر أوامره أو خلفائه وأعوانه بالمحافظة على الكتب القديمة منها والحديث على حد سواء. وقد أنشأ مكتبة بمنزلة في "الزمالة" جمع فيها كثيـرا من الكتب القيمة، ولما استولى الجيش الفرنسي بقيادة الدوق" دومال" على أمتعته وممتلكاته، حزن أشد الحزن على ضياع المكتبة.

ويمكن اعتبار الأمير عبد القادر بهذا الصنيع المجدد الديني للقرن الثالث عشر الهجـري فـي المغرب العربي؛ حيث إنه كان رجل السيف والقلم معا، والمجاهد الذي حمل لواء الجهاد والعلـم فـي وقت واحد، ففي الوقت الذي كان يجاهد فيه العدو الغربي والمحتل كـان يقـدم برنامجـه الإسـلامي الإصلاحي في مجال التربية والتعليم ونشر الفكر والثقافة بين أهل البلاد، بعد أن تخلفوا طـويلاً عـن ركب الحضارة الإنسانية، وانتشرت فيهم صور التخاف والقبلية المذمومة فضلاً عن الجهـل والأميـة والخرافات التي عششت في العقول طويلاً.

وقد أثبت الأمير عبد القادر بصنيعه هذا في ميادين القتال التي انتشرت منها قواته ومجاهـدوه وفي ساحات العلم والثقافة في المساجد والزوايا وحلقات العلم والدرس التي توزع فيها أتباعه ومريدوه، أن رحم تلك الأمة الإسلامية والعربية ما زال خصبا بالعبقريات والأفذاذ تـدفع بهـم عبـر القـرون والأزمان، وأن شخصية عظيمة من نوعية تلك الشخصيات الضخمة التي حفلت بها حضارة الإسـلام، تنبعث من جديد لتجدد لهذه الأمة حياتها، وتعيد لهذا الدين رونقه وبهاءه، فشخصية الأمير في حقيقـة الأمر تشبه تلك الشخصيات الإسلامية الفذة من أمثال الشيخ العز بن عبد السلام، والـشيخ الـشاذلي، والقطب أحمد البدوي، هؤلاء الصوفية العظام وعلى الرغم من قيامهم بأداء رسالتهم العلمية والفكريـة والروحية، وريادتهم لأدوار تربوية وتعليمية في أمتهم الإسلامية، إلا أنهم لم يتوانوا عن صد جحافـل التتار والمغول والصليبيين عن بلاد الإسلام، وألقوا بأنفسهم وتلاميذهم أمام العدو يكبدونـه بالخـسائر

---

[57] الأمير عبد القادر، محفوظ قداسن. ص ٦٠.



الفادحة، ويضربون بأنفسهم وبأهليهم المثل على صدق النموذج وأصالة هؤلاء الرجال، في هذه الأمة، وفي اتفاق الفكر مع العمل، والنظر مع التطبيق والعقيدة مع السلوك.

وكان الأمير عبد القادر هو النموذج الحديث للفارس العالم المسلم، الذي يسلك ويعمـل وفقًـا للشريعة الإسلامية التي تصلح لكل زمان ومكان، فقد حقق الأمير دستوره الذي دعا إليه فـي خطبـة المبايعة، فسارت دولته وفقًا للكتاب والسنة، وكانت الأحكام القضائية في إمارته تصدر طبقًـا للقـرآن الذي خضع الأمير لنصه وروحه خضوع إجلال وتقديس[58].

وكان الأمير مثالاً للعدل والرحمة حتى مع أعدائه وظالميه، وتجلى هذا فـي حـسن معاملتـه للأسرى، حين كان ينتصر في كثير من المواقع على الفرنسيين، فقد كان صاحب عناية كبيرة وعاطفة رحيمة بهؤلاء الذين كان يأسرهم جنوده، فكانت عادته أن يرسل الرجل إلى "تازة " أو "تاكدمت"، أمـا النساء فقد كُن بلا استثناء يرسلن إلى "الزمالة" حيث تعتني بهن والدته[59] وقد أفرد "تشرشل" الفـصل السادس عشر من تاريخه لذكر حسن معاملة الأمير للأسرى، ورحمته بهم وشـفقته علـيهم، إذا كـان يكافئ من يأتيه بالأسير حيا أكبر مكافأة[60] ولقد كان الأمير كما قال "فاليوت" "Valiot" في تاريخـه: "عدو كريم الأخلاق. فإن كان أسيرا عنده قد أثنى عليه"[61].

د- الاستسلام والأسر:

ثم استؤنفت الحرب بين الأمير والفرنسيين في صفر عـام ١٢٥٥ هــ/ ١٨٣٩ م فـدخلت العلاقات الفرنسية الجزائرية مرحلة جديدة، فقد كان رئيس الوزراء الفرنسي سولت Soult من أنصار الاحتلال الشامل[62] ولعل من أكبر دلائل الذكاء عند الأمير عبد القادر تنبهه لضرورة تضامن شعوب المغرب العربي للدفاع عن نفسها"[63].

فقد أدرك أنه لن يستطيع إقصاء الفرنسيين من شمال إفريقيا "إلا بإقامة وحدة مغربية، فرابطـة الدم والعقيدة والأرض، والتاريخ المشترك، تدعو إلى الاتصال بسلطان مراكش"[64] ولما اتصل الأمير بالسلطان، لم يأبه هذا الأخير لاستغاثته.

---

[58] تشرشل: ص ١٥٥.

[59] انظر بشأن معاملة والدة الأمير للأسيرات كتاب تشرشل. ص ٢٠٤.

[60] تشرشل: ص ٢١٨.

[61] نقلاً عن فؤاد صالح السيد: الأمير عبد القادر الجزائري متصوفًا وشاعرا. ص ٥٦ الجزائر سنة ١٩٨٥.

[62] تطور السياسية الفرنسية في الجزائر. صلاح العقاد. ص ١٣.

[63] الحركات الاستقلالية في المغرب العربي: علال الفاسي. ص ٤.

[64] مع صانعي التاريخ الأمير عبد القادر الجزائري: فائزة عبد المجيد. مجلة العربي عدد ٥٧ ص ٥٥ سنة ١٩٦٣.

وعلى الرغم من تحمس أهالي الريف بالمغرب الأقصى؛ حيث كتب ذوو الشأن منهم إلى الأمير وطلبوا إليه أن يأتي ويتولى عرش مراكش، إلا أنه لم يقبل ذلك[65].

وبات الأمير وحيدا، فقد عادت فرنسا بعد انتصارها على مراكش في معركة" وادي أيسلي "Isly" في ٢٩ رجب عام ١٢٦٠ هـ/ تطالب سلطان مراكش بتنفيذ مضمون الهدنة المعقودة بينهما، ومن شروطها: تسليم الأمير عبد القادر للفرنسيين[66].

فإطاعة لأوامر فرنسا، وإشفاقًا منه على عرضه، خاصة وأن فرنسا أوهمت السلطان بأن الأمير يطمع في بلاده وعرشه، جهز السلطان جيشًا جرارا قاده ولداه: أحمد ومحمد في محرم عام ١٢٦٤ هـ فأصبح الأمير بين نارين، فآثر الاستسلام للفرنسيين بعد مشاورات كثيرة مع أتباعه ومستشاريه فقد اجتمع عليه الأعداء من الفرنج، والسلاطين والأمراء الخائفين على عروشهم في المغرب الأقصى من ناحية وفي تونس من ناحية أخرى، ووجد الأمير أن البديل للاستسلام يعد انتحارا، ليس له فحسب، بل ولمن حوله ممن كانوا على استعداد للشهادة في أية لحظة، فوضع الأمير السيف في ١٥ محرم عام ١٢٦٤ هـ/ وحمل القلم مرتحلاً عن أرض بلاده، بادئًا سيرته العلمية، بعد أن نفاه العدو خارج أرضه، وبعد جهاد وكفاح بالسيف دام سبعة عشر عاما.

وكانت شروط الاستسلام أن يذهب الأمير وأسرته إلى مكة والإسكندرية، وأن يخير ضباط الأمير وجنوده بين أمرين: إما البقاء في الجزائر، وإما مرافقته إلى منفاه. وأن تصان حياة الضباط والجنود الراغبين في البقاء، ويحافظ على أملاكهم[67].

فقبل الجنرال لامور سيير Lamorciere الشروط بدون تردد، وسر لانتهاء متاعب فرنسا في حربها ضد الأمير، وأخبر فرنسا بذلك، فابتهجت باريس. ولم يعلموا جميعا أن الأمير ضرب المثل بنفسه كأنموذج للقائد المسلم المكافح والمثابر لسبعة عشر عاما، وأنه بذلك قد أوقد جذوة النار، التي وإن خبت قليلاً، بفعل ظروف وعوامل لا قبل لها بها، سرعان ما ستشتغل من جديد في منتصف القرن العشرين، على يد أبناء هذا الأمير وأتباعه وأمته، فلا تبقى ولا تذر وتطيح بفرنسا وتنتزع منها الحرية والكرامة بعد استعمار يطول أمده، في ثورتها التحريرية المباركة. وفي الواقع فالأمير قد صنع كل ما يستطيعه البشر، ولم يتوقف إلا عندما استنفذ كل الحيل، وهو في ثورته هذه قد أذاق العدو ويلات الحرب وكبده خسائر فادحة، دفعت فرنسا مرارا إلى التفكير في الانسحاب من استعمار البلاد، لولا الكبرياء الزائفة لدولة كبرى كانت تعد في وقتها عظمى، وجدت نفسها قد تورطت في حرب يموت

(65) تحفة الزائر. ص ٤٥٠.

(66) تحفة الزائر ص ٤٤٩.

(67) انظر نص الشروط التي اشترطها الأمير لاستسلامه في كل من تحفة الزائر: ص ٥١٠ والتصوف والأمير عبد القادر الحسني الجزائري: ص ١٦، ١٧.

فيها أهلها وهم سعداء بموتهم، يضاف إلى هذا، ذلك الشره الاستعماري الذي كان يجتاح البلاد الأوربية إلى السيطرة على العالم العربي والإسلامي في القرنين الماضيين.

والمهم في الأمر والمتواتر المشهور أن الأمير لم يستسلم إلا "على أن يكـون هـو وأتباعـه أحرارا في اختيار منفاهم"[68] وأكثر من ذلك أنه أرسلت له ورقة بيضاء مختومة ليكتب في بياضها ما يشاء من الشروط، ومعها سيف القائد الفرنسي[69]، على نحو تخيير معاوية للحسين بن علي، واختيـار هذا أيضا – حقن الدماء. وقد استسلم وهو – كما يقول بعد يوم الاستسلام بثلاث سنوات – قادر علـى الاستمرار في الحرب بهمة من كان حوله من الفرسان الأشداء على الأعداء، والأمناء على الوفاء وأن أضايق الفرنسيين مدة طويلة... وكان في استطاعتي أن أنهزم على حصاني إلى المدن المقدسة. لكني تركت ذلك حبا لراحة أهلي والجرحى وضعفاء أصحابي"[70]

هـ - سفره إلى الشرق واستقراره بدمشق:

وبعد بضعة أيام من إحكام عقد التسليم وتنظيم الشروط اللازمة لحفظه وحفظ حاشيته وسـائر أتباعه، سواء من رغب في الهجرة معه، أو فضل البقاء في البلاد، توجه حيث كانت تنتظره البارجـة الحربية الفرنسية، التي أقلعت به إلى الشرق، ولكنها ما أن وصلت إلى مرفـأ "طولـون" "Toulon" الحربي في ٢٤ محرم عام ١٢٦٤ هـ حتى أنزله حاكم طولون في برج لاملاج أسيرا، فأدرك الخيانة وقال: "لو كنا نعلم أن الحال يؤول إلى ما إليه آل، لم نترك القتال حتى تنقضي منا الآجال".

وعرضت عليه الحكومة الفرنسية أن يتخلى عن شـرطه الـذي اشـترطه علـى الجنـرال لاموريسيير[71] مقابل إعطائه الأملاك الواسعة، فأجابها بكلمته المشهورة: "إني لا أقبل هذا، ولو فرشت لي سهول فرنسا ومسالكها بالديباج"[72] ومن هنا اعتبرته فرنسا أسيرا[73]، ولم تكتف بهذا بل ضـيقت عليه، وحرمته من كتابة الرسائل، ومنعت الناس من زيارته إلا بإذن خاص من وزارة الحربية[74].

وبعد أن مكث مدة في طولون، نقلوه ومن كان معه إلى "سراية پو Pou" عند الحدود الفرنسية الإسبانية، ولم تمض ستة أشهر أخرى، حتى نقلوه إلى مدينة بوردو، فإلى مدينة نانـت، ومنهـا إلـى

---

(68) الحركة الوطنية الجزائرية: أبو القاسم سعد ا . ص ٥٦.

(69) الحركة الوطنية الجزائرية: أبو القاسم سعد ا . ص ٥٦.

(70) من رسالته إلى "دوبيش" أسقف فرنسا: تحفة الزائر. جـ ٢ ص ٥٢٤.

(71) والقاضي بذهابه إلى مكة والإسكندرية.

(72) تحفة الزائر. ص ٥١١.

(73) تشرشل. ص ٢٥٦.

(74) تحفة الزائر. ص ٥٢٨.

سراية أمبواز التابعة المقاطعة "أورليان". وجددت حكومة الجمهوريين من فرنسا دعوتها السابقة للأمير في ما يتعلق بالسكن في فرنسا، فرفض ما اقترحته رفضا قاطعا[75].

ووجد الأسير الجريح العزاء والسلوى في كتبه ودراسته وعبادته. فقد داوم في تلك المدة على تدريس العلم، وإفادة الطلبة من جماعته، فقرأ "الصغرى" للسنوسي[76]. في علم الكلام، ورسالة الإمـام أبي زيد القيرواني في الفقه، على مذهب الإمام مالك، وغيرهما من المصنفات، كمـا قـرأ "صـحيح البخاري" وكتاب "الشفا" للإمام عياض[77].

وعكف الأمير إلى جانب التدريس والمطالعة على الكتابة والتأليف، شعرا ونثرا، وممـا ألـف خلال إقامته بأمبواز رسالة سماها "المقراض الحاد لقطع لسان الطاعن في دين الإسلام من أهل الباطل والإلحاد" كما نظم الأمير كثيرا من قصائده خلال هذه المرحلة الصعبة من تاريخ حياته، وكان يجد في النظم عزاء وتسوية، وسمى نظمه في هذه الفترة "المساجلات" وهي قصائد ومقطوعات شـعرية كـان ينظمها على سبيل المساجلة والمفاكهة، بينه وبين العلامة الشيخ "محمد الشاذلي القسنطيني[78]، والـذي أرسلت فرنسا في طلبه من الجزائر للإقامة مع الأمير عبد القادر بسراية أمبواز، وأثنى عليه وأعلـن إطلاق سراحه، مشترطًا علية ألا يعود إلى الجزائر، وقد استدعاه لويس نابليون رسميا إلـى بـاريس، فلبى الدعوة ودخلها وكان وصوله يوما مشهورا، بالاحتفال الذي أجرته فرنسا لدخوله إلى عاصمتها.

وقدم الأمير تعهده كتابة بعدم العودة نهائيا إلى الجزائـر[79] وحـين تـولى لـويس نـابليون إمبراطورية فرنسا باسم "نابليون الثالث"، وكان الأمير من جملة منتخبيه فزاره في قصر سـان كلـود وهنأه فبالغ الإمبراطور في إكرامه وأهداه سيفًا مرصعا قائلاً له:" واعلم أنني أقدم لك هذا السيف، وأنا على يقين، بأنك لا تجرده على فرنسا "فأجاب الأمير: "إنني الآن، ممن يستعمل القلم، لا ممن يـستعمل السيف" [80] وفي أول ربيع الأول عام ١٢٦٩ غادر الأمير عبد القادر وعائلته فرنسا على ظهر السفينة لابرادور قاصدا الشرق.

---

[75] تحفة الزائر. ص ٥٤٢ ويلاحظ خلال رد الأمير على الاقتراح الفرنسي عشقه الحرية الشريفة، ورفضه كل مغريات العبودية الباطلة.

[76] أم البراهين في العقائد المعروفة باسم "السنوسية الصغرى" بتصنيف الإمام السنوسي (٨٣٢ – ٨٩٥هـ).

[77] كتاب في السيرة النبوية ألفه أبو الفضل عياض (٤٧٦ – ٥٤٤هـ) بمراكش. انظر: الأعلام.

[78] عالم فاضل من أقطاب الصوفية، وكانت بينه وبين الأمير مساجلات شعرية. انظر: الأمير عبد القادر الجزائري متصوفًا وشاعرا: د. فؤاد صالح السيد. ص ٦٢.

[79] تشرشل: ص ٢٦٧ وتحفة الزائر ص ٥٦٠ ، ٥٦١.

[80] تحفة الزائر.

وحين وصل إلى الآستانة عن طريق صقلية قابل الصدر الأعظم رشيد باشا، وشـيخ الإسـلام العالم العلامة، وعارف حكمت بيك، ودعي بعد عدة أيام إلى صرح السلطان العثماني عبد المجيد الأول في استانبول، والذي كان كفله لدى فرنسا عندما طلبت منه ذلك؛ فمدحه الأمير بقصيدة طويلـة، كمـا قابل عنده الوزراء والأعيان وشعراء الدول الأجنبية وتحادث معهم في الشئون العالمية[81] ثم توجـه إلى "بروسه" حيث نزل بالقصر السلطاني، وجعل يتجول بين الآثار والمشاهد تارة ويقضي كثيرا مـن وقته في الدراسة والتأليف، فقرأ حينئذ ألفية ابن مالك بشرح المكـودي، والإيـساغوجي للعنـاري[82] و"الإبريز في مناقب سيدي عبد العزيز"[83] وقد ألف الأمير في خلال إقامته ببيروسه رسالته المعروفة باسم "ذكرى العاقل وتنبيه الغافل". ولكنه سرعان ما غادر بروسه لعدم تآلفه مع الأتراك، إلى دمـشق؛ حيث جعلها مستقره الأخير، وقد قضى فيها سبعة وعشرين عاما من عام ١٢٧٢ هـ إلى ١٣٠٠ هـ/ ١٨٥٦ م قضاها في القراءة وحلقات الدرس، والتأليف، والتأمل الصوفي والـرحلات الروحيـة إلـى الأماكن المقدسة، وكانت هذه الفترة الأخيرة من حياته غنية وخصبة بالعلم والتأليف والدرس، خاصـة وأنه أصبح مركز اهتمام العلماء والمثقفين من أهل بلاد الشام، فقد صـار "قبلـة العلمـاء والفقهـاء ومحجتهم، إليه يرجعون في كثير من الأمور الدينية، وعلى آرائه يستندون"[84]

وطلب علماء دمشق وفقهاؤها من الأمير أن يكون أستاذهم، بعد أن تشوقوا إلى الاستفادة مـن معارفه وثقافته وتجاربه، فقبل الأمير بناء على إلحاحهم، فتألف صف من ستين عالما وطالبـا كـانوا يجتمعون إليه يوميا في الجامع الأموي الكبير، فيذهب إليهم للتدريس والمباحثة في مختلف فروع العلم، وعلى الرغم من أن القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف كانا قاعدة الدرس والمناقشة، إلا أنه كـان كثيرا ما يختار نصوصا فلسفية لأفلاطون وأرسطو ويأخذ في شرحها وتحليلها شرحا وتحليـلاً عقليـا وفلسفيا، ومن أجل مزيد من الاستنارة بالفكر الأجنبي فضلاً على الفكر الـديني؛ ممـا جعـل طلابـه يزدادون تعلقًا به، لأنه "نهج على غير الطريقة المعتادة في التفسير والشرح"[85].

و- زياراته للأماكن المقدسة ووفاته:

وكانت عند الأمير رغبة جارفة، في أواخر حياته لزيارة مكة والمدينة والمجاورة لهمـا، ولـم يتمكن من ذلك إلا بعد وفاة والدته المسنة التي كان بارا بها ويخدمها بنفسه ويقوم بشئونها أثنـاء الليـل

---

[81] الأمير عبد القادر: د. يحيى بو عزيز. ص ٧٠.

[82] شمس الدين محمد الرومي (٧٥٢ – ٨٣٣) له شرح إيساغوجي في الفلسفة.

[83] تأليف العلامة أحمد بن المبارك اللمطي الفاسي. انظر: المنجد في الأعلام. ص ٢٤٩.

[84] الأمير عبد القادر: عبد الرحمن البرير. مجلة الكشاف. بيروت مجلد ٢ جـ ٩ ص ٥٥٧ بيروت سنة ١٩٢٨.

[85] الأمير عبد القادر: عبد الرحمن البريير. مجلة الكشاف. بيروت مجلد ٢ جـ ٩ ص ٥٥٧.

وأطراف النهار[86] فغادر دمشق في أول رجب عام ١٢٧٩ م متوجها إلى الحجاز سالكًا طريق مصر، ثم قضى عاما كاملاً في مكة لم يغادر حجرته؛ حيث انقطع للخلوة والعبـادة والدراسـة الدينيـة، إلا للذهاب إلى الجامع الكبير وكان لا ينام في اليوم إلا أربع ساعات ولا يأكل إلا مرة واحدة"[87].

وأخذ الأمير الطريقة الشاذلية،[88] عن الشيخ محمد الفاسي المجاور في مكة، واختاره أسـتاذًا صوفيا له. وحين فتح عليه مدحه بقصيدته الرائية، واصفًا فيها بداية الرحلة الصوفية ونهايتها[89] ثـم انتقل إلى المدينة المنورة؛ حيث مكث أربعة أشهر متابعا خلوته منقطعا حتى "قويت معارفه وواردات ـه الإلهية، وانكشفت له الحقائق القرآنية والأحاديث النبوية".

ثم عاد إلى دمشق بعد هذين العامين من الانقطاع للخلوة والعبادة، وبعد أن صار مجـاورا[90] وحصل كثيرا من المعارف والحقائق الصوفية التي لا تتجلى بغير الخلوة الصوفية والمجاهـدة القلبيـة والروحية، واستأنف ثانية حياة الدرس والمطالعة لتلاميذه ومريديه.

وبعد بضع سنوات قضاها "الأمير في التدريس والكتابة والتـأليف، أصـيب بمـرض الكلـى والمثانة، ومع كثرة ما قاساه من الآلام، وعاناه من الأوجاع" لم يظهر ضجرا، ولا تأوه قط، ولا تـرك الصلاة في وقت من الأوقات "وكان دائما مشتغلاً بالمراقبة والذكر[91]. حتى وافاه الأجل فـي التاسـع عشر من رجب عام ١٣٠٠ هـ ـ ٢٤ آيار عام ١٨٨٣ م في قرية دمر بضاحية دمـشق، عـن سـتة وسبعين عاما.

واجتمعت آراء العلماء والأعيان على دفنه بجوار القطب الرباني الشيخ الأكبر محي الدين بـن عربي[92] الذي كان الأمير معجبا به في حياته إعجابا شديدا وتأثر خطاه في كثير من تصوفه وبعد أن تحقق النصر لثورة الجزائر في منتصف القرن العشرين، بادر رجالها إلى تجسيد وفائهم نحو الأميـر عبد القادر، فنقلوا رفاته من دمشق إلى العاصمة الجزائرية عام ١٩٦٨ م وبعد خمسة وثمانين عاما من وفاته[93]، ونقشوا على ضريحه عبارة أطلقها في وجه فرنسا، حين كان أسيرا بين يديها تقـول: "لـو

---

[86] تحفة الزائر: ص ٦١٧.

[87] الأمير عبد القادر الجزائري: وديع نادر. مجلة المورد الصافي بيروت مجلد ٢ جـ ٣ ص ٢١١.

[88] مؤسسها أبو الحسن الشاذلي (٥٩٣ – ٩٥٦هـ) في المغرب ومصر، وتعتمد طريقته على طلب العلم، وكثرة الذكر، مستندة إلى الكتاب والسنة. انظر : التصوف الإسلامي تاريخه ومدارسه. ص ٢٩٤، ٢٩٧.

[89] الديوان: قصيدة "أستاذي الصوفي" ص ١٩٧ وتتألف القصيدة من ١١١ بيتًا.

[90] المجاور من يقيم بصورة مستمرة في مكة أو المدينة مدة سنتين أي يبقى في الحرمين وتتعاقب عليه حجتان.

[91] تحفة الزائر . ص ٨٥٦.

[92] تعريف الخاف برجال السلف. الحفناوي. ص ٣١٢.

[93] تراجم الأعلام المعاصرين في العالم الإسلامي. ص ٢٦٠.

جمعت فرنسا سائر أموالها، ثم خيرتني بين أخذها وأكون عبدا وبين أن أكون حـرا فقيـرا معـدما، لاخترت أن أكون حرا فقيرا".

الفصل الثاني

ثقافته وآراؤه ومؤلفاته

ثقافته وآراؤه ومؤلفاته

١- ثقافته:

الأمير عبد القادر ذو ثقافة واسعة في مختلف العلوم والآداب فقد تثقف بثقافات دينيـة وإنـسانية متنوعة، فإذا أردنا تبين مصادر هذه الثقافة المترامية الأطراف سواء منها العقلي والنقلـي، الحـديث والمعاصر أو القديم والتراثي، فسنجد أن القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، هما النبع الأصـلي الثري الذي لا ينضب لمعين فكره وثقافته فعنهما كان يصدر دائما في كل أقواله وأفعاله. ويـستوي – في حرصه المقيم عليهما: بحوثه المنهجية، ورحلاته الوجدانية ورؤاه المناميـة، وأسـلوبه البيـاني، وسلوكه الاجتماعي والسياسي فقد صدر في كل ذلك عنهما. فالآية والحديث أو بعـضهما، أو بعـض أحدهما، ولو في إحدى القراءات أو الروايات نقطة البدء دائما والإذن بالانطلاق فـي آيـات الأنفـس والآفاق ويمكن اعتبار عطائه الفكري ومقامه في التجديد في فهم القرآن، كما يقرر فـي أول موقـف جدير بأن يسمى "الثقافة القرآنية "أو الإسلامية ويسمي هو" المثقف أو الأديب القرآني أو النبوي" وكـل ما عدا هذين المصدرين عند الأمير يقبل المخالفة شكلاً وموضعا، فالمعول في النهايـة علـى مـنهج المفكر الذي يتبعه في إدراك الحقائق بمستوياتها المختلفة، وفي العـودة بالمعـارف والحقـائق إلـى مصدريها الأصليين من قرآن أو سنة.

والأمير يتبع شيوخ ثقافته أصلا "لأن لكل ما يقولون دليلاً من الكتاب والسنة وأن أولى طـرق الدراسة عندهم "أنهم تثوروا (بحثوا) قاموس القرآن والسنة لأنه بستانهم الذي فيه يتنزهون"[94].

ثم نجد كل مؤلفات التراث وكتبه روافد لا تنضب للأمير يردها دائما، وينهـل منهـا تلميـذًا وأستاذًا فمن الكتب التي نهض لتدريسها مرارا، أو اختصها بإعجابه الشديد. كتـاب "الـشفا" للقاضـي عياض و "إحياء علوم الدين "للغزالي، وأكثر من كتاب الشهرستاني، وكثير من مؤلفات ابـن عربـي كالفصوص والفتوحات المكية، وكتب ابن مسكويه الأخلاقية، والرسالة للإمام محمد أبي زيد القيرواني.

فإذا توقفنا عند بعض هذه المؤلفات، لنعرف ثقافة الأمير ونقف على معارفه وأفكاره، فـسنجد أن كتاب "الشفا" للقاضي عياض، ليس الوحيد، الذي يختصه الأمير بالإعجاب، فذلك ما تـشاركه فيـه وتزيد عنه كتب كثيرة. ولكنه ينحو في سرده منحى يجمع بين اختيار المواقف والأحوال التي تـروق أصحاب الوجد الصوفي، وبين طبيعة المؤلف في الدقة والتحري. ويستطيع قارؤه – مثلاً – أن يفـرد

---

[94] المواقف: للأمير عبد القادر الجزائري . جـ ١ ص ٢١٩.

دراسة عن المحبة فيه، بل للمشابهة الواضحة بين دواعي محبة الصحابة للنبي ومحبـة الأميـر عبـد القادر له، وهو الذي ينتسب إليه كما تدل على ذلك شجرة عائلته، كما يمكن أن يعثر علي رأي كامـل وغير شائع حول إعجاز القرآن، حتى قيل إنه "لم يؤلف مثله في بابه"[95] فهو – إذن مختلف اختلافًـا مميزا عن بقية الكتب ويشعر المؤلف نفسه بالاختلاف والامتياز كما يعتبر "إحياء علوم الدين" للغزالي هو المرجع العملي والنظري لجوانب كانت بحاجة إلى من يجلوها على هذا النسق الجديد، ويهيم الأمير عبد القادر هياما طويلاً ببعض عباراته ويحاكيه في نسج بعضها، كما يتأمل طويلاً في تحليلاته النفسية والروحية، خاصة وأنه يتشابه مع الغزالي في تقلده لدور المربى والمرشد لكثير من الأتباع والمريدين.

أما كتاب "الملل والنحل" للشهرستاني، الذي يعد بعبارة المتخصصين "أول تاريخ للفكر العالمي بالمعنى الصحيح"، وكتاب "نهاية الإقدام "الذي هو أعلى مستوى لعلم الكلام "لأنـه وضـع المـشكلات وعدد الآراء وخرج بالرأي الصحيح [96] فهما كتابان في رأي الأمير لم يؤلف مثلهمـا مـتكلم[97] وإن كان الأمير ينعي على المتكلمين اشتغالهم بالكلام "أكثر من الـلازم"[98]. ومـن الكتـب الرائـدة فـي موضوعاتها أيضا والتي اهتم بها الأمير دارسا، واشتغل بها تدريسا، "الفتوحات الملكية" و "فـصوص الحكم" وديوان "ترجمان الأشواق" للشيخ الأكبر ابن عربي. فهي جميعا وكما يقال تؤسس مـذهبا فـي الفلسفة متكاملاً وتنتظم مختلف العلوم اللغوية والأدبية والشرعية والإنسانية فضلاً عـن تعمقهـا فـي الروحانيات والتحليلات النفسية.

أما كتاب "الحكمة الخالدة" و "كتاب تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق "لابن مسكويه، فإن ولهما يتجه اتجاه الغزالي العملي ولكن في مجال التربية بخاصة، ويغوص إلى بيان الحكمة العملية وحكمـة الحياة، بينما يظهر أثر الثاني أكثر في موضوعاته متعددة بكتاب للأمير يسمي "ذكرى العاقـل" حيـث يعني بنتائج تجاربه ومعاناته الشخصية ومشاهداته، حتى استطاع إحصاء ما يـسميه ابـن مـسكويه" الفضائل الأربع على أنه يسميها في "ذكرى العاقل" بالقوى الأربع مع اختلاف التجربتين؛ حيث غلـب على ابن مسكويه الطابع الأخلاقي، ويغلب على كتاب الأمير الطابع الصوفي؛ حيث يعتبـر التجربـة الروحية هي البوتقة التي يكتسب من خلالها المزيد من الأخلاق الرفيعة.

وقد أعجب الأمير بمؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية، وكذلك بسيرة حياته وشجاعته في الـرأي وممارسة آرائه السياسية التي كثيرا ما كان يجهر بها ويعيش وفقًا لها في شجاعة أدبية نـادرة. وقـد درس الأمير صحيحي البخاري ومسلم، وكذلك الألفية في النحو لمالـك، والـسنوسية فـي التوحيـد،

---

[95] التفسير البياني: د. حفني شرف. ص ١١٢ جـ ١ استانبول المطبعة العثمانية عام ١٣١٢ هـ.

[96] المرجع السابق. جـ ١ ص ١٩١.

[97] انظر الدليل البليوجرافي للقيم الثقافية العربية. ص ٧٢ القاهرة عام ١٩٧٢.

[98] المواقف: جـ ١ ص ٥٠.

وإيساغوجي في المنطق، والإتقان في علوم القرآن في التفسير للسيوطي، والعقائد النسفية في العقيـدة والتوحيد[99].

وقد اهتم الأمير بهذه الكتب التراثية العميقة في علومها لحاجته الشديدة إليها فـي موقفـه فـي مواجهته التخاف الموروث في بلاده من ناحية، ولتصديه للمواجهة العقلية والعملية من ناحيـة أخـرى خاصة بعد الغزو الفرنسي لبلاده، ذلك الغزو الذي لم يهدف فيه الفرنسيون إلى الاستيلاء علـى أرض الجزائر وثرواتها فحسب، بل أرادوا فرنسة الجزائر نهائيا والاستيلاء على فكر وثقافة وعقيـدة ذلـك الشعب العربي المسلم.

وكل ما سبق من مصادره الثقافية، فيها ما ظهر تأثيرها واضحا في ثقافته لتناوله إياها بالشرح والتحليل وبأسلوب عربي ميسر ومبين كالفتوحات والفصوص لابن عربي، ومنها ما أثنى عليـه ثنـاء اختصه به دون غيره، أو أقرأه كثيرا للخاصة وللعامة كثرة مميزة، ومن هذه الكتب كتـاب "الإبريـز" لابن المبارك.

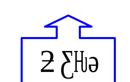
ونخلص من كل ذلك إلى أن لعبد القادر قدما في جوانب التراث الثقافي كله أو أكثره، ولـيس من السهل العثور على جانـب يمكـن اسـتثناؤه دون أن يلـم بـه إلمـام القـارئ الـنهم الفـاهم أو الشارح الموضح، أو الناقد المفند، أو السابق المجدد، أو طالب العلم العازم على مواصـلة الطلـب حتى تحقيق الكمال.

ومن هنا تتبين لنا شخصية الأمير الفكرية والثقافية "المنفتحة" إذا صح هذا التعبير، خاصـة إذا علمنا أنه كان يحاور ويناظر ويصادق الأحرار من المفكرين والساسة والأدباء والشعراء ورجال الدين من أصحاب الديانات الأخرى، وأهل الصحافة. ونجد دائما في مجـالس التعلـيم والتـدريس، وبـين المتناظرين وصاحب المراسلات والرسائل والمذكرات، والمساجلات؛ مما ينبئ عن شخـصية علميـة محققًا إصلاحية إصلاحا بليغًا، صاحب نجده وفروسية، لا يبخل بالعطاء الفكري والروحي قبل العطاء المادي.

وقد عرف الأمير بأنه رجل علم ورأي وصاحب فكر ومنهج، كما عرف بأنه رجـل حـرب وحكم وسياسة، ومن هذه النفاذة الثقافية دلف إليه العلماء وطلاب المعرفة في منفاه بفرنـسا، وكثـرت محاوراته ومراسلاته، والتلقي عنه، وقد احتكم إليه بعض الفرنسيين حول مسألة الحضر والبادية وأيهما يفضل؟ وقد عبر عن تفضيله للبادية بأدلة معقولة وأخرى مقبولة، ورأى أن أهل البادية أوفـى عهـدا، وأشجع نفسا وأكثر احتمالاً وأطول أعمارا وأشف حسا وأصدق إلهاما. وقد أودع ذلك كله وأكثر منـه قصيدة من أجود شعر الروميات. وفيها تواكب قدرته البيانية المعهودة خبرة دبلوماسية جديدة اكتـسبها

---

[99] الأمير عبد القادر: د. يحيى بو عزيز. ص ١٣٢.



في أثناء إقامته بالمنفى، أو لعلها خبرة بلاغية، لأنها تراعي مقتضى الحال: حال المخاطبين لا حاله هو وحده، فقد ظل إعجابه بمظاهر المدنية محدودا حتى بعد حلول رضاه محل سخطه ومغادرته فرنسا، لأنه كان يعنيه بعد التقدم الأخلاق، وفي المرتبة الثانية التقدم العلمي والصناعي ووسائلهما، وقد سبق الأمير عبد القادر عصره إلى منازلة الغربيين حول محور من محاور الصراع بين الشرق والغرب، وهو الأخلاق، وبقى من هذه المحاور اثنان هما الدين والمرأة.

ويبدو أن الأمير افتتح عصر المناظرات حول القضايا الدينية قبل أن تنشب بعشرات السنين بين "الأفغاني" و "رينان" وبين "محمد عبده" وبين "لوبون" و "دي هانوتو" و "برتيلو" ثم بين "قاسم أمين" و "داركور" وكذلك بين "كارلايل" والسيد "أحمد خان" فضلاً عن الحوار العلني الضخم بين سلف هذا الأخير" رحمت ا الهندي" و "مستر فرنج" عام ١٢٧٠ هـ بالهند[100] وفي أكثر المحاورات شهرة واستمرارا للجدل ظفرت الدراسات الأدبية والاجتماعية بطائل من الوثائق والقرائن على ثقافة وآراء عبد القادر الشخصية حول قضية المرأة، وعلى مدى تمكن نزعة الفروسية فيه، وذلك عندما ناظره في مناظرة علمية دينية جنرال كان قد نازله في ميدان المعركة بالجزائر، وعاش قريبا منه، ومترددا عليه في عاصمته "معسكر" ومعتقله "أمبواز" بفرنسا، حتى إنه تعلم العربية ووقف على كثير من القضايا المشتركة بين الإسلام وغيره من الأديان وبخاصة حول حقوق المرأة وواجباتها.

ويبدو أن هدف هذا الجنرال واسمه "دوماس" كان سياسيا مثلما كان هدف "داركور" بعد أربعين عاما حين أراد "أن يطلع أمته على البلاد التي تركتها فرنسا (مصر) لتفترسها إنجلترا وحدها دون أن تشاركها الغنيمة"[101].

وقد وجه الجنرال "دوماس" عشرين سؤالاً للأمير[102]، وكانت ردود هذا مثلاً ناضحا للإعلان عن رؤيته الثقافية المختلفة عن غيره قليلاً أو كثيرا، لأنه صاحب مذهب سنعرفه بعد قليل، وقد مارس هذه النظريات والآراء التي يرددها فكرا وشعرا وعلما وأحكاما دون كثير من المتناظرين، وقاتل الذين يمنعون المرأة حقًا من حقوقها قتالاً شديدا زمنًا طويلاً، اضطرهم إلى التزام العدل.

وتعتمد طريقة ناظرة الأمير على الإفاضة الدقيقة المنظمة للأدلة والشواهد، والإحاطة بالعديد من المراجع الشرعية والأدبية والتاريخية، وكذلك الكتب المقدسة القديمة التي تعد معرفة ما فيها جزءا ضروريا لمثل هذه المناسبات في ثقافته، كما تعتمد على مشاهداته وخبراته ومقارناته بين المجتمع

---

[100] غير أن الأمير أسبق من هذا الأخير، ولو أنه عاش بين سنتي ١٢٠٨ هـ و ١٢٢٢هـ لأن المناظرة المذكورة دونت بالأردية سنة ١٢٨٠ هـ ثم نقلت العربية ، وطبعت بالقاهرة باسم "أظهار الحق" سنة ١٣١٧ هـ أي بعد وفاة الأمير بسبعة عشر عاما.

[101] قاسم أمين: ماهر حسن فهمي. ص ٩١ انظر: الأمير عبد القادر الجزائري: محمد السيد الوزيري. ص ٥٣ ، ٥٤.

[102] انظر الأسئلة العشرين وأجوبتها: تحفة الزائر . ص ٧٣٠ – ٧٦٥ جـ ١.

الغربي والمجتمع الشرقي، والإقرار بالفروق التي تعيب الشرقيين، أو بعناصر معينة فيـه، والتمـاس ميزة ما في هذا المجتمع المتخلف على ذلك المتقدم.

والحق أن ردود الأمير عبد القادر ومناظراته كما يقول أحد الباحثين "كأسى دهاق من المعارف مزجها فروسية الفكر وطفولة الصدق.. وأيا ما قيل فإن عبد القادر واجه الاصطلاء بتلـك الظـاهرة الحضارية التي تتجلى في المباريات الفكرية والسياسية والعنصرية، ووقف منها موقفًا رائـدا وممهـدا وأجال النظر، والتمس الدليل المقبول والتعليل المعقول لكل ما يقول دون توقف أو تخوف كأنه – بـل لأنه – ما زال في ميدان حرب عوان بين ثقافتين جد متصارعتين"[103].

٢- أساتذته وشيوخه:

وإذا أردنا معرفة أسـاتذة الأميـر عبـد القـادر وشـيوخه الـذين أخـذ عـنهم مباشـرة، أو بطريق غير مباشر، فسنجد أنه يعتبر النبي محمد صلى الله عليه وسلم، الذي ينتسب إليه، فهو مـن سلالته الطاهرة، أستاذه الأول وقبلته في العلم والمعرفة والإيمان، ويعترف صراحة بأنه مـن البحـر المحيط خاتم النبوة يرتشف[104]، والذي كان يلقبه في قصائده بسيد العارفين وإمام المتـوكلين، وإمـام المحبوبين[105].

ويعتبر أن الهجرة إلى الرسول هي المقصد الثاني للدلالة، وتعريف سلوك الطريق المطلـوب وهي هجرة جسمانية، وكما كانت الهجرة لرسول الله صلى الله عليه وسلم – واجبة قبل الفـتح، فـتح مكة، فهي اليوم باقية لورثة أحواله وأسراره، الدالين على الله تعالى الداعين إلى معرفته[106]. أما شيخه الذي يعتز به بعد اقتدائه برسول الله (صلى الله عليه وسلم) فهو الـشيخ الأكبـر محيـى الـدين بـن عربي[107] (٥٦٠ – ٦٣٨ هـ) الذي يعتبره وارثًا محمديا بالأصالة، ويجب الانقياد لكلامه والخضوع لمعارفه، فإنه الوارث الكامل"[108].

---

[103] الأمير عبد القادر الجزائري. ثقافته وأثرها على أدبه: محمد السيد محمد علي الوزيري. ص ٥٤.

[104] المواقف: للأمير عبد القادر. مجلد ٢ الموقف ٢٩٨ ص ٩٤٦. القاهرة عام ١٣٤٤هـ.

[105] المواقف في الوعظ والإرشاد: للأمير عبد القادر الجزائري. مجلد ١، الموقف ١٦٥ ص ٣٧، والموقف ٢٣٢.

[106] المواقف: للأمير عبد القادر. جـ ١ الموقف ١٨٥ ص ٤٠٧.

[107] هو أبو بكر محمد بن علي بن محمد الحاتمي الطائي الأندلسي، حكيم وصوفي، ومتكلم وفقيه ومفـسر. ولـد فـي مرسيه شرقي الأندلس، ودرس جميع العلوم المعروفة في عصره، واتصل بكثير من الصوفية، وزار الشرق واستقر في دمشق حيث توفي. وله كثير من كتب التصوف أهمها: الفتوحات المكية، وفصوص الحكم، الـذين يحويـان خلاصـة مذهبه، وترجمان الأشواق. والذخائر والأعلاق. والأخلاق. وحاضرات الأبرار. راجع كحالة: معجم المؤلفين. جـ ١١ ص ٤٠ – ٤٢.

[108] المواقف: للأمير عبد القادر جـ ١ الموقف ٢٨٥ ص ٨٧٢.

ومن مفارقات الصدف أن تكون حياة الشيخ الأكبر، ومريده الأمير متشابهة إلى درجة كبيرة جدا، فكلاهما من المغرب العربي والأندلس، فالشيخ محي الدين أندلسي الأصل، والأمير من بلاد المغرب (الجزائر)، واعتبرا كلاهما سفراء الغرب إلى الشرق. كذلك استغرق كل منهما طويلاً في وضع مصنفه الصوفي الشهير. فكتاب "الفتوحات الملكية" للشيخ محي الدين" قضي في وصفه وتمحيصه ثلاثين سنة أو يزيد[109]، وكتاب "المواقف" فقد ألفه الأمير في الفترة الأخيرة والخصبة من مراحل حياته عندما استقر في مدنية دمشق، وهي حقبة زمنية طويلة تبدأ من عام ١٢٧٢ حتى وفاته عام ١٣٠٠ هـ وكان الأمير عبد القادر أول من عمل على نشر "الفتوحات المكية" لأول مرة عندما أرسل عام ١٢٨٨ هـ نسخة من الفتوحات مع عالمين جليلين إلى "قونية" لمقابلتها وتصحيحها على النسخة الأصلية الموجودة هناك بخط مؤلفها الشيخ الكبير، وقد اقتبس الأمير بعض أبواب الفتوحات، فكتاب "المواقف" ملئ بالأبواب المقتبسة من الفتوحات، وكذلك ينصب الأمير نفسه شارحا لفصوص الحكم الذي يحوي مذهب محي الدين بن عربي في التصوف، وقد أخبر أحد أخواته أنه طالع عدة شروح للفصوص، وخاصة شرح فص إسماعيل، ولا أحد منهم أبرأ عليه، وأزال غليله، ولذا طلب منه أن يحل له ألفاظ هذا الفص بما يفتح ا به[110]، ثم أوضح ألفاظ الفص الشعبي[111] والفص الآدامي[112] كذلك دافع الأمير دفاعا شديدا عن إسناده، فبرأه مما نسب إليه من "الكتب" المؤلفة في علم التدبير والكيمياء، "وكذلك ما ينسب لسيدنا محي الدين من الكتب المؤلفة في الملاحم والجفر"[113] معتبرا أن هذه "المؤلفات زور وافتراء، فإنه محال أن يدل ولي من أولياء ا عباد ا على ما يقطعهم عند ا تعالى"[114] ودافع عن كتاب أستاذه" المقنع في السهل الممتنع "الذي هو" موضوع في كيمياء السعادة، كيمياء النفوس"[115] وتوهم كثير من الحمقى أنه موضوع في تدبير الكيمياء المعدنية، وأتعبوا أنفسهم في فهمه على الطريق الذي توهموه.

وفي الواقع حارب الأمير عبد القادر الخرافات والشعوذة التي سادت في عالم التصوف وبين هؤلاء الذين لم يفهموا التصوف فهما حقيقيا واعتقدوا أن تغيير الأشياء والإتيان بالمعجز من الأفعال هي من الكرامات التي ترتفع بمقام الأولياء، فانبرى الأمير لمحاربة هذا التيار الهدام والذي هو دخيل على التصوف والصوفية، ورأي أن ما يأتيه البعض من أفعال في هذا الشأن يعد بدعة وليس من

---

(109) الفتوحات المكية: ابن عربي. مقدمة السفر بقلم المحقق. د عثمان يحيى ص ٢٧، ٢٨ القاهرة. عام ١٩٧٢م.

(110) المواقف: الأمير عبد القادر مجلد ٣ المواقف ٣٥٥ ص ١١٦١.

(111) المواقف: الأمير عبد القادر مجلد ٣ الموقف ٣٥٨ ص ١١٩٧.

(112) المواقف: الأمير عبد القادر مجلد ٣ الموقف ٣٦٧ ص ١٣٣٧.

(113) الموقف: الأمير عبد القادر مجلد ٢ الموقف ٢٤٨ ص ٧٠٩.

(114) المواقف: الأمير عبد القادر مجلد ٢ الموقف ٢٤٨ ص ٧٠٩.

(115) المواقف: الأمير عبد القادر مجلد ٢ الموقف ٢٤٨ ص ٧٠٩.

الإسلام، فما يصدر عنهم إلا شعبذة، ومنه ما هو سيمياء، ومنه ما هو خواص يتوارثونها بيـنهم، أمـا الصالحون المصالحون حقًا فلا "تظهر عنهم كرامة إلا لفيضان وجد، أو هداية مريد، أو نصرة شرع، أو إنقاذ هالك، أو حاجة شديدة بالناس"[116].

ولم يكن الأمير عبد القادر متهما بمثل هذه الأشياء، ولم يكن موقفه منها مشتبها فيه، ولذلك لم ينفها عن نفسه، وإنما نفاها عن ابن عربي نفيا قاطعا، وعن كل من يصلح لربط الأسـباب بمـسبباتها ربطًا وظيفيا حسبما تقتضيه ضرورة العمران وعوامل التقدم نحو الكمال المنشود.

وكان يلقب أستاذه الشيخ "بإمام العارفين" و "إمام الكاشـفين مـن الأوليـاء وخـتم الوارثـة المحمدية"[117] من الألقاب التي تدل على شديد حبه وتعلقه به، وقد ذكرنا من قبل ذلك التشابه الغريـب الذي وقع بين الأمير وشيخه محي الدين بن عربي، وقد بلغ ذلك التشابه مبلغه الأقـصى حـين نعلـم باستقرارهما النهائي في مدينة دمشق، ووفاتهما بها، ودفنهما عند سفح جبل قاسيون في الحي المعروف باسم "الصالحية". فلم يعد ابن عربي إلى موطنه الأصلي الأندلس منذ أن غادرها عام ٥٩٨ هـ لتأدية فريضة الحج، وكذلك الأمير عبد القادر، فإنه لم يعد إلى وطنه الجزائر، منذ أن غادرها مكرهـا عـام ١٢٦٤ هـ، وقد دفن بجوار شيخه بالصالحية.

ومن شيوخ الأمير الشيخ "محمد الفاسي" الذي أخذ عنه في أثناء خلوته الصوفية بمكـة والتـي استغرقت عامين، وأثني على ا بما أولاه على يد سيده وشيخه الفاسى، وكان يعتبر مـلاذه وعمدتـه وعدته، فلقد تجدد عمر الأمير على يديه، واكتسب بفضله حياة روحية جديدة؛ حيث إن شيخه محيـى النفوس[118]. ويبدو أن الأمير قد ترقى في معارج روحية كثيرة بفضل هذا الأستاذ فإن للأسـتاذ فـي السلوك الصوفي منزلة كبيرة في مساعدة مريده على اجتياز كثير من العقبات وتخطـي كثيـر مـن الصعاب، واكتساب كثير من المقامات والأحوال.

وهناك كذلك من شيوخ الصوفية الذين أخذ عنهم وتأثر بهم الشيخ "خالد النقشندي السهروردي"، والشيخ" محمود القادري الكيلاني" وغيرهم من الشيوخ المذكورين في "الديوان" وفي كتابه "المواقـف". ويأتي اهتمام الأمير بشيوخ الطريق الصوفي من حيث إن الصوفية كانوا دائما ينظرون بعين الارتياب، إلى كل صوفي لم يصحب شيخًا من المشايخ يتأدب به، ويلزم الطريق الذي رسمه له، ولذلك يقول أبو زيد البسطامى: من لم يكن له أستاذ فأمامه الشيطان"[119].

---

[116] المواقف: الأمير عبد القادر مجلد ٢ ص ٦٧٨.

[117] المواقف: الأمير عبد القادر مجلد ١ الموقف ٢٢ ص ٦٦.

[118] الديوان: للأمير عبد القادر. شرح وتحقيق د. ممدوح حقي. ص ١٩٧، ٢٠٠ بيروت عام ١٩٦٥.

[119] القشيري: الرسالة القشيرية. ص ٧٣٥.

فلا غنى لسالك الطريق عن شيخ وأستاذ خبير بمفاوز طريق التصوف المؤدي إلى تذوق حلاوة الإيمان والاطمئنان إلى صحة السير على أن يكون هذا المرشد أو الخبير قد سلك طريق التصوف على يد شيخ آخر، سبق له سلوكها وأصبح قادرا على هداية غيره.

ومتى تمرس السالك بهذه الطريقة، ومر بالمقامات كلها، وحصل على الأحوال أصبح أهلاً لأن يعد في صفوف المتصوفين، فيمنحه شيخه "الخرقة" أو "المرقعة" وهي رمز اكتمال المريد، ومنها "وصول بركة الشيخ الذي ألبسه من يده المباركة إليه.. وفيها المواصلة بين المريد وبين الشيخ، فيبقى بينهما الاتصال القلبي والمحبة دائما ويذكره الاتباع على الأوقات في طريقته وسيرته وأخلاقه، وأحواله حتى يبلغ مبلغ الرجال"[120].

٣- أسلوبه في التدريس والكتابة:

إذا كانت الأنواع التعبيرية ثلاثة هي: الإشارة التي تتوقف على المشاهدة. واللفظ الذي يتوقف على حضور المخاطب وسماعه. والخط الذي لا يتوقف على شيء. فهذا الأخير، في نظر الأمير، أشرفها، بل هو خاصية النوع الإنساني "لأن القلم وإن كان لا ينطق فإنه يسمع أهل المشرق وأهل المغرب فما جمعت العلوم ولا تبدت الحكمة ولا ضبطت أخبار الأولين ومقالاتهم ولا كتب ا المنزلة إلا بالكتابة.

فلولا الكتابة ما استقام للناس دين ولا دنيا، كما يقول الأمير "فالكتابة عين العيون، بها يبصر الشاهد الغائب، وفي الكتابة تعبير عن الضمير بما لا ينطق به اللسان". ومن هنا يأتي اهتمام الأمير بالكتابة والتأليف، على الرغم من تعويله في تدريسه وتربيته لتلاميذه ومريديه على الشرح والتحليل شفاها في الزوايات والمساجد، وحلقات العلم، ضاربا الأمثلة والنماذج على ما يقول إلا أن الكتابة في نظره تساعد على التفسير والتعبير وتهيئ للفكر فرصة للتحليل والتعليل. وفي مؤلفات الأمير نجده يستعين بالتفصيل المؤكد المستوعب كثيرا من المفروض والاحتمالات بعد أن يجمل رأيه – أحياناً – إجمالا عاما أولاً.

ثم يعود على ذلك أخيرا، وهذه الظاهرة خصيصة من خصائص أسلوبه بوجه عام. ثم هي تطبيق عملي لرأيه في أنه إذا كانت الخواطر ثاقبة "أو بالطبع، قابلة مستعدة، أو مقررة لما يقول على نحو ما أقام الاختصار لها مقام الإكثار، وإلا فلا بد لها من زيادة الكشف والبيان ضمن منهج خاص في التأليف وتقديم المعرفة"[121] يؤكد فيه أن لكل علم أهلاً لهم استعداد مقبول وهمة والتفات لتحصيله، فما

---

[120] كشاف اصطلاحات الفنون: التهانوي. جـ ٤. ص ٢٤٣ – ٢٤٤.

[121] ذكري العاقل وتنبيه الغافل: الأمير عبد القادر. تحقيق وتقديم د. ممدوح حقي . ص ١٣٣ – ١٣٧ بيروت سنة ١٩٦٦.

كل علم يصلح لكل الناس ولا كل الناس يصلح لكل علم[122] والأمير يـرى اتـساع بحـر المعـارف والعلوم، فإن "نتائج الأفكار لا تقف عند حد، وتصرفات العقول لا نهاية لها، لأن العالم المعنوي واسع كالبحر الزاخر، والفيض الإلهي ليس له انقطاع ولا آخر ". ومن هنا يرفض المقولة التي تردد أنه ليس هناك جديد تحت الشمس وأن الأوائل ما تركوا شيئًا للأواخر، فيقول:

"ما ترك الأول للآخر شيئًا خطأ، والقول الصحيح هو: كم ترك الأول لآخر. ويقال: لا كلمـة آخر من قولهم: ما ترك الأول للآخر شيئًا، لأن هذه الكلمة تقطع الآمال عن زيادة العلـم علـى علـم المتقدمين، ويقتصر الآخر على ما قدمه الأول، وهو خطر عظيم، وقـول سـقيم.. فالأوائـل فـازوا باستخراج الأصول، وتمهيد القواعد، والأواخر بالاستنباط من الأصول، وتشييد تلك القواعـد وزيـادة البناء فيها"[123].

ومن هنا تأتي كتابات الأمير وتأليفه على الرغم من قلتها إضافة جديدة وتحليلاً عميقًا للتـراث الإسلامي، فكتاباته تصطبغ بالبحث عن الجديد ومحاولة الاكتشاف والإبداع، فإذا أخذنا مؤلفه.. ذكـرى العاقل "كمثال على حسن أسلوبه وتجديده ومفارقته لأساليب العصور الوسطى، فسنجد الرسـالة كلهـا مليئة بالأفكار الجديدة، والحكم البليغة، والتوجيهات الصحيحة المبنية على التجربة وحـصافة الـرأي. وبعد النظر. وقد تجلت في الرسالة براعة الأمير في حسن الأسلوب ومتانة التعبير، ودقـة المعنـى، وجمال السبك، وغزارة التفكير والمنطق الرزين، حتى لتخال الأمير فيها فيلسوفًا بحق، وحكيما قديرا.

أما كثير من أشعاره وكتاباته الصوفية كالديوان والمواقف، فإننا نجده فيهـا فارسـا يـصول ويجول، ويكشف عن جوانب من العبقرية والفتوة في شخصيته الأصلية، وهو في جميعها يقوم بـدور المكتشف والمرتاد لأحوال ومقامات صوفية لم تطرق بعد، يمارسها بنفسه ويرتادها بهمتـه وإرادتـه ويعبر عنها بحاله ومقاله، والمواقف في ناحية من نواحيه يعتبر سيرة ذاتية أو اعترافات سجلها الأمير للتاريخ لأفكاره وأحواله ومقاماته.

أما طريقته في التدريس، فكان يلتزم طريقة معهودة في بلاد المغرب العربي، فكـان يجلـس جلوس الرعيل الأول المتواتر، فيبدأ بالصحابي: اسمه ونسبه وصـنعته، وتـاريخ ولادتـه ووفاتـه، وشيوخه، ثم يذكر لغة الحديث وعربيته قبل أن يفيض في الشرح والتحليل والتعليق. ومتـصفح كتـب الأمير ويومياته الخاصة ورسائله وشروحه يلحظ "صفات الحديث" هذه إذا صحت التسمية، من الشرح والاستشهاد الأدبي والتاريخي، ومراجعة نفسه فيما قد يخطئ فيه فضلاً عن مراجعة غيـره، وتحقيقـه المخطوطات وتوثيقه المراجع، وتعديله أو تجريحه الشهود والرواة والمؤلفين.

---

[122] المواقف: الأمير عبد القادر مجلد ١ الموقف ٨٣ ص ١٦٣.

[123] ذكري العاقل: للأمير عبد القادر . ص ١١٠ – ١٣٢.

ويقف دارسه، كما يقول أحد الباحثين في أدبه[124]، على سر مباهاته علماء "باريس" برواية علم الحديث التراث العلمي الأصيل الموروث، فلهذا العلم فضل لا ينكر على عدة علوم منها التاريخ بمعناه العلمي الدقيق. ولهذا السبب ظهر حوله الشعراء والعلماء والمؤرخون واللغويون والنحاة، كما ظهر المحدثون والرواة والمفسرون.

وكان الشعراء والأدباء أضعاف العلماء كما كانوا موضع ثقة نقاد الأدب ومتذوقيه ودارسيه لدرجة كبيرة، ولكن الأمير المجاهد والصوفي والمفكر لم يلتفت للنحو والصرف والعروض التفاته إلى بقية العلوم وإلى الشعر، إما لرأي يراه في مذهبه الثقافي، وهو صرف الجهد إلى الهدف دون إطالة الوقوف عند الوسائل، وإما لرأي شاع عند بعض العلماء مثل شيوخ بجاية الجزائرية في القرن السابع الهجري، وهو أن النحو والصرف ومثلهما مما لا يجري فيه التفاضل بين المتعلمين، وقد سبقهم إلى مثل هذا الرأي أو أوسع مدى منه الإمام الغزالي في الإحياء، وهو أحد المؤثرين تأثيرا واضحا وصريحا في ثقافة الأمير عبد القادر واتجاهه الفكري والسلوكي.

٤- أهم آراء الأمير عبد القادر:

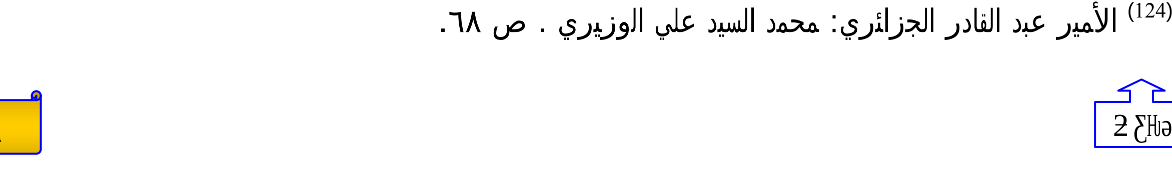
نستعرض هنا بعض آراء الأمير عبد القادر الهامة، وعلى الرغم من أن له كثيرا من الآراء الفلسفية والثقافية التي تحتاج إلى دراسة متأنية، إلا أن هذه الآراء التي نعرضها هنا لها دلالات خاصة في فهمه للإنسان، خاصة للمرأة والتي تشكل جزءا من أشعاره كبيرا، وكذلك فهمه وتذوقه للقرآن الكريم الذي يعول عليه كمصدر أساسي للمعرفة، وكذلك عقيدته في القضاء والقدر والتي كان لها تأثير كبير في تشكيل مواقفه وجهاده في مرحلتي السيف والقلم.

أ- رأيه في المرأة:

إذا أردنا معرفة رأي الأمير في المرأة، فسنجدها صورة طبق الأصل للمرأة العربية الأصيلة في أعماق تاريخنا العربي والإسلامي، وقد تراءت صور المرأة في ثورة الأمير عبد القادر بأوجهها المختلفة، وتطالع من يتعمق سيرة الأمير على مسرح الوقائع بأدوارها المتعددة، فقد تجلت حبيبة، وزوجة، وأما، كما تراءت قائدة، وفارسة وخطيبة.

فمنذ اللحظة الأولى لثورته، ومبايعة الأمة له بالإمارة، ارتفعت المرأة الجزائرية – وكانت من قبل قد تخلفت كثيرا تحت وطأة العادات القبلية، إلى مستوى الرسالة التي تلقيها على عاتقها أصالة عروبتها وسمو إسلامها، ولم يسجل التاريخ عليها في الواقع ترددا في تحمل هذه المسئولية. يتجلى ذلك في موقف زوجة الأمير، يوم دخل عليها، وهو في طريقة إلى المسجد لإلقاء أول خطبة له بعد البيعة حيث قال: "إن أردت البقاء معي، من غير التفات إلى طلب حق، فلك ذلك، وإن أبيت إلا أن تطلبي

(124) الأمير عبد القادر الجزائري: محمد السيد علي الوزيري . ص ٦٨.



حقك فأمرك بيدك، فقد تحملت من أمر المسلمين ما يشغلني عنك"[125] واختـارت الزوجـة المـسلمة الوفية، أن تبقى ظلاً للأمير الفارس، ولكنه الظل الذي يأوى إليه حين يشتد القيظ، ويجوب بها بطـون الأودية وقمم الجبال، في جهاده الدءوب ضد المستعمر، أو يتركها في كنف ا ويغيب عنها الـشهور المتوالية في المعارك المتعاقبة والمتطاحنة، فلا أقل من أن تستحق كل عنايته ووفائه هو الآخر، وقـد كان الأمير دائما وفيا، فنجده في الديوان مخاطبا زوجته، التي يكنيها أم البنين، بلسان الفارس قائلاً:

تـــسألني أم البنـــين، وأنهـــا	**لأعلم مـن تحـت الـسماء بـأحوالي**
ألـم تعلمـي يـا ربـة الخـدر أننـي	**أجلّي هموم القوم، فـي يـوم تجـوالي**
وأغـشى مـضيق المـوت لا متهيبـا	**وأحمي نساء الحي في يـوم تهـوالي**
وعني سلِ جيش الفرنـسيس تعلمـي	**بأن منايـاهم بـسيفي وعـسالي** [126]

وعلى الرغم من أن الأمير كان "عصبي المزاج[127] "وهذا معروف عنه، عنيفًا في الدفاع عما يعتقد أنه الحق، لا يلين للقوة مهما قست وطغت. فيه شيء من عنجهية البادية وعنادها وصـلابتها، إلا أننا نجد هذه الصلابة والقوة تلين وتنثني أمام جمال المرأة، وإذا استغرب المرء موقف الأميـر هـذا، وجد الأمير نفسه أكثر استغرابا، فهو يتملكه العجب من هذا الواقع الغريب، ولكنه سرعان ما يستدرك، ليذكرنا بأنه، قبل كل شيء، فارس، ويليق بالفارس أن يخضع لسلطان واحد لا غيـر هـو: سـلطان الجمال الذي يتملك مهج الفرسان، ويخضعهم لسلطانه الذي لا يقَهر، ولذلك نجده يقول في الديوان:

ومـن عجـب تهـاب الأسـد بطـشي	**ويمنعنـــي غـــزال عـــن مـــرادي!!**
ومـــاذا؟ غيـــر أن لـــه جمـــالاً	**تملـك مهجتـــي ملـــك الـــسواد**
وســلطان الجمـــال لـــه اعتـــزاز	**على ذي الخيـل والرجـل الجـواد**[128]

وفي الحقيقة فالذي يصوغ رأي الأمير في المرأة، يعود – في رأينا – إلـى مرحلـة التنـشئة الأولى فقد كان معجبا بوالدته، شديد التعلق بها، وشديد الاحترام لها، يأخذ برأيهـا، ويستـشيرها فـي الملمات الصعبة والأمور العسيرة، حتى اتهم بأنه يخضع لما تـصدره مـن: مكاتبـات، وتحـارير، ومراسلات موقعة باسمه، فقد ورد في رسالة أرسلها للأمير خليفته السيد "أحمد بن سالم"[129] من جبال

---

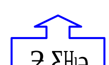
[125] تحفة الزائر: الأمير محمد عبد القادر جـ ١ ص ٩٧.

[126] الديوان: للأمير عبد القادر. ص ٥٨.

[127] انظر مقدمة الديوان: للأمير. المحقق. د. ممدوح حقي. ص ١١.

[128] الديوان: الأمير عبد القادر. ص ٧٢.

[129] كان خليفة الأمير في الجهات الشرقية، وباستسلامه إلى الفرنسيين عام ١٢٦٣ هـ ـ ضعف أمر المسلمين في الشرق، وقد نقلته فرنسا بناء على طلبه إلى دمشق حيث توفي بها عام ١٢٧٣هـ. تحفة الزائر. ص ٤٤١ – ٤٨٢.



جرجرة يقول فيها: "وقد أشاع المرجفون ما لا نقدر على ذكره، وأشاعوا أن والدتكم تصدر المكاتبـات والتحارير اللازمة باسمكم الكريم"[130]

ولذلك يرى بعض الباحثين[131] أنه ربما كانت والدة الأمير "ذات شخـصية طاغيـة" تفـرض الإعجاب والاحترام على كل من يراها، وهي بالفعل كذلك، ففي الزيارة الأولى التي قام بهـا "لـويس نابليون" للأمير في أسره بأمبواز، وعندما قدم الأمير والدته" قبل البرنس يدها، وسـألها الـدعاء"[132] وكان كبار العلماء الذين يراسلون الأمير، يقدمون لوالدته الاحترام اللائق بها، مع تحياتهم الخاصة[133].

ومن هنا نفهم سر إعجاب الأمير بوالدته، فقد كان شديد التعلق بها، يصطحبها فـي أسـفاره، وكأنه يلتمس من عقلها الراجح، ومن روحها العضد والطمأنينة، فقد رافقته إلى الأسر، وحملهـا معـه إلى إستانبول وبروسه ودمشق، وبعد رجوعه من دفنها بمقبرة "الدحداح" إلى منزله في دمشق، توقـف عدة مرات في الطريق من هول المصيبة، فقال له بعض من كان معه "أرفق بنفسك" فقال لـه: "كيـف ذلك وأنا فقدت أعظم من كان يحبني على وجه الأرض"[134].

فمن حب الأمير لوالدته وإعجابه الشديد بها، فضلاً عن تشربه لوجهة نظر الإسلام في المـرأة والتي كان يرى أنه لا ينصفها دين مثلما ينصفها الإسلام، ارتفع شأن المرأة في نظره وسما مكانها في وقت تخلف دورها وانمحت مكانتها نتيجة التخلف الثقافي والاجتماعي في العالم العربي والإسلامي في عهد الأمير، ويتبين لنا ذلك واضحا في الإجابات العميقة والسديدة التي قـدمها الأميـر حـين أجـاب "دوماس" عن عشرين سؤالاً تتصل بالمرأة ودورها في الإسلام وكذلك المكانة التي يضع الإسلام المرأة فيها، فيوضح له كيف أن الإسلام هو الدين الوحيد الذي يعطي لها حقوقهـا كاملـة، ويفهـم دورهـا الصحيح في الحياة وإذا كان قد أمرها بالحجاب والستر، فما ذلك إلا صونًا لها عن الابتذال ومـواطن الشبهات وصونًا للمجتمع من فتنتها، كما يشير إلى مسألة الميراث ويعالجها بأسلوب اجتماعي رفيـع، فالميراث أولاً: حكم ا . وثانيا أن الرجل يقوم بجلائل الأعمال كالسلطنة ومباشرة القتال، ويدافع عـن بلاده وعشيرته، كما أن من طبيعة الرجل أن ينفق على قريباته إذا احتجن" بخلاف المرأة فإنها لا تنفع إلا نفسها في الغالب".

---

[130] تحفة الزائر: الأمير محمد عبد القادر. ص ٤٤١.

[131] مقدمة الديوان: د. ممدوح حقي. ص ١٢.

[132] تحفة الزائر: ص ٥٦١.

[133] تحفة الزائر: رسالة الشيخ يوسف بدر الدين المغربي (ت ١٢٧٩هـ) التي أرسلها للأمير. ص ٥٨٧.

[134] تحفة الزائر: ص ٦٦٩.

وثمة سند رابع في تعليل توريث الرجل مثل حظ الأنثيين هو أن هذا في الميراث فقط أما فـي غيره "فيجب على الرجل أن يسوي بين أولاده في العطية"[135] كما يرى الأمير أن الطلاق، لا يخلو من الأذى، غير أنه لا يحل إلا درءا للمتاعب، وحرصا على القيمة الإنسانية، وقد عرفت أوربا في العصر الحديث، فوائد الطلاق الكثيرة التي تترتب عليه وهو نظام يقره الإسلام بنـصوص القـرآن، ويعـالج مشاكل كثيرة يمكن أن تنشأ بين الزوجين حين تصبح الحياة غير ممكنة بينهما، فقد وقعت أوربا نتيجة عدم إباحتها للطلاق في براثن المشكلات الاجتماعية الخطيرة وتمثل العلاقات غير المشروعة والإباحية الجنسية إحدى هذه المشكلات؛ مما اضطرها في النهاية أن تأخذ به.

وعندما قال "دوماسي" إن المرأة عندهم ترجي لأفعالها الجميلة، أما عند هؤلاء فلجمالها غالبا، سارع الأمير بتأكيد صحة الاتهام، وذلك" إذا كان مع الجمال دين"، فهم يرغبون حقًا في المرأة الجميلة لنشدانهم الألفة والمحبة والاستغناء والدوام "فحسن الخلق والخلق لا يفترقان في الغالب". كمـا يـدافع الأمير عن مسألة التعدد، فا تعالى لم يفرض التزوج من أربع، وإنما فرض شيئًا واحـدا فقـط هـو التماس السلامة، وأسباب الصحة، فمن كانت سلامته في واحدة فهو أفضل، وليس فيما يـأذن ا بـه ضرر، ويستشهد الأمير بسفر التكوين الذي جاء فيه تعديد الأنبياء للنساء، والنساء ما زالوا متفـاوتين في ذلك حتى اليوم[136] ويوافق الأمير على أن المساواة ضرورية واجبة يقتضيها العدل المأمور به في كل شيء ولكنها غير ممكنة في المحبة بل غير واجبة "لأن الحب لا اختياري للإنسان فيه حتى يقـدر على فعله وتركه، بل هو أمر ضروري لا قدرة على رفعه" وليس الجمال وحده هـو الـذي يفـرض المحبة وإنما هنالك أسباب معنوية بجانب الحسية، فالقلوب "مجبولـة مقهـورة علـى حـب الحـسن، والإحسان ولا يقدر الإنسان أن يبغض الوجه الحسن ولا من يحسن إليه"[137].

وقد كان الأمير عبد القادر يحب ويكرم ويحترم النساء، اقتداء بأقوال النبي صـلى ا عليـه وسلم وأفعاله خاصة وأن هناك كثيرا من الأحاديث النبوية الصحيحة التي توصي بهن خيرا منها حديثه الشريف "ما أكرم النساء إلا كريم، ولا أهان النساء إلا لئيم" وحديث "خيركم خيركم لامرأته وأنا خيركم لنسائي"، فضلاً عن مشورته صلى ا عليه وسلم لنسائه في كثير من الأمور.

ومن هنا كان إكرام الأمير للنساء حتى الأسيرات منهن اللاتي كان يرسلهن إلى والدته، وقـد كانت في طليعة الثورة، وكانت لها مسئولياتها؛ إذ تولت شئون الأسيرات الفرنسيات بنفسها، وضـربت خيمتها بين خيامهن[138].

---

[135] انظر: ذكرى العاقل: للأمير عبد القادر الجزائري. وإجابته عن الأسئلة العشرين.

[136] ذكرى العاقل: للأمير عبد القادر نقلاً عن الأمير عبد القادر: محمد السيد علي الوزير ص ٥٧. ٥٨.

[137] ذكرى العاقل: للأمير عبد القادر. الأسئلة العشرون.

[138] تحفة الزائر: ص ٣٠٣ . جـ ١.

وكانت والدته خير نموذج للمرأة المسلمة المجاهدة، والتي لا تقل عن الرجل فروسية أو نـبلاً. وكان الأمير يهتم ببناته ويقوم بتربيتهن وتعليمهن، وكذلك قامت والدته وأخته "خديجـة" فـي بعـض الملمات مقام الأكفياء من الرجال، وقد انعكست شخصية الأمير المجاهد الفارس على أخته هـذه، فقـد امتطت صهوة الفرس، واستقبلت الجيش الذي هزه الخبر الكاذب بمقتل الأميـر قائلـة: "إن استـشهد شقيقي، فجاهدكم على الدين والطن، وذكركم باق إلى الأبد وهؤلاء أهله وأولاده في كنف ا وتحـت رعايتكم، فحافظوا عليهم إلى أن يظهر ا ما في غيبه"[139].

ب- رأيه في إعجاز القرآن الكريم:

فإذا انتقلنا إلى موضوع آخر له دلالته، وهو رأي الأمير في إعجاز القرآن الكريم، واستعرضنا مختلف وجهات النظر، فسنجد أن الإمام "الطبري" يرى أن بيان القرآن هو سبب فضله على ما قبله من الكتب السماوية. ولا يفضل أبو هلال العسكري على دراسة البيان إلا معرفة ا تعـالى[140] – بينمـا يلحق "ابن سنان الخفاجي"[141] بالجاحظ ويسبق الجرجاني في تنزيل إعجازه منزلة إحياء الموتى. وقد رأى "الجرجاني" في الصدد عن البيان صدا وانصرافًا عن القرآن[142] بل تـراه يـستوثق مـن ذروة الإيمان عن طريق البيان، ويسوف مقاصده للمنكرين والمترددين في الإيمان[143]، سوقه شواهده الفنية لهذين الصنفين في أضرب الخبر وموازاة حالهما الذهنية والنفسية بالصيغ التعبيرية المناسبة.

وقد اتفق هؤلاء المنتسبون لمدرسة البيان القرآني على شيء آخر، وهو إحكام نتـائج بعـض دراساتهم جيلاً بعد جيل، وإمكان الإفادة وتلبية الحاجة العاجلة منها، وصلحت للنظر بالاستدراك ومزيد من التذوق والاستشهاد والقياس، وطول وعمق وسعة مجال النظر والإحـساس. يـستوي فـي ذلـك المستدلون بالتأثير النفسي كابن قتيبة والزمخشري والخطابي وأبي هلال والقاضي عياض، ومن قـال بالصرفة كالرماني وابن سنان الخفاجي والرازي والسكاكي والأصفهاني والزركشي، ومن جعل البيان علما حيا في حسن العلاقة والجوار والألفة في نظم الكلام.

فإذا أردنا تبين مذهب الأمير في إعجاز القرآن، فسنجد صعوبة نسبته أو إضافته إلى أي مـن هذه المناهج والمدارس حسبما انتهى إلى تفـصيلها المؤرخـون المتخصـصون الـشرعيون مـنهم والبلاغيون[144].

---

[139] تحفة الزائر: جـ ١ ص ٢٨٢.

[140] انظر مقدمة الصناعتين.

[141] مقدمة الموجز لكتابه "الفصاحة" : ابن سنان الخفاجى.

[142] مقدمته لكتابه "دلائل الأعجاز".

[143] الرسالة الشافية: بين ثلاث رسائل في إعجاز القرآن. ص ١١٧ – ١٣٢.

[144] انظر: أ – ثلاث رسائل في إعجاز القرآن: للرماني والخطابي والجرجاني. تحقيق د. محمد خلف ا .

وهو يذهب مذهب البيانيين الذين يمنعون الترادف في القرآن "لأنه يجل عن تكرر لفظة لغير زيادة معنى "حسب تقريره"[145]. وإذا رأيته يعرب حرفًا على الزيادة فلا شك أنه يحكي قول غيره.

وإذا قال إن شرف النبي بالقرآن من حيث إعجازه للخلق عن أن يأتي بأقصر سورة من مثله فإنه ليس نصا على الإعجاز البياني وحده، فلا بد أن يوضح رأيه القيم مباشرة بقوله: ولما فيه من الأخبار بالمغيبات والأنباء عن الأمم البائدة". ولو أنه يقرر أن شرف العرب به في "كونه نزل بلسانهم الذي به يتكلمون، ولغتهم التي بها يتحاورون، وألزم الخلق جميعهم أن يتلوه بهذا اللسان في كل زمان ومكان"[146].

وأكثر من ذلك بيانًا وتجميعا لأسباب الإعجاز أنك "ترى العارفين يستخرجون العلوم والأسرار من القرآن، وجميع العلوم المتداولة مأخوذة من القرآن ويهدي إليها هداية بينة" ويرى في إمكان استدلال عشرات الفرق المتخالفة بآيات منه دليلاً معجزا وكل هذا "من جملة وجوه إعجازه وخروجه من طوق البشر"[147].

ويكدح الأمير عبد القادر ويسعى للوصول إلى أوجه جديدة لإعجاز القرآن، وجهده هذا وسعيه هو الذي يجعله يقول بضرورة التجديد في فهم آيات القرآن، فإن قابليتها لهذا التجدد المستمر، في رأيه، وجه من وجوه الإعجاز، بل أول وأولى الوجوه. وهو يرى أن لكل قادر على النظر والفهم والتذوق والتعبير أن ينظر في القرآن ويعبر دون مصادرة، ما دام يستند على قدر معقول من الاستدلال، ولكن عليه ألا يقطع بأن رأيه في الآية هو الرأي الوحيد والأخير، فهذا يجعل لعجائب القرآن ولأسراره نهاية، وعجائبه وأسراره في حقيقة الأمر لا نهاية لها، ومن هنا يحظر الأمير عبد القادر رواية القرآن الكريم والحديث الشريف بمعانيها، لأن نص الآيات والعبارات والحروف لها إيماءات ودلالات تختلف الأنظار والأذواق والأفكار والاستعدادات حولها[148] فنظم القرآن الذي هو عليه وخاص به يتيح لكل أن يأخذ ما يناسب استعداده، فالحق تعالى يعطي كل ناظر فيه ما يستحقه من مدلولات لا يحاط بها مهما كانت نتائج النظر: إما هدى وإما ضلال، فالعطاء واحد ولكن أخذ الاستعدادات وهي كثيرة لا تنفذ هو المختلف[149]، فذلك كله على ما فيه من اختلاف وجه من وجوه الإعجاز.

ب – التفسير والمفسرون: للشيخ محمد حسين الذهبي. القاهرة عام ١٩٦١.

ج – إعجاز القرآن البياني: د. حفني محمد شرف. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية سنة ١٩٧٠.

[145] المواقف: الأمير عبد القادر مجلد ١ ص ٤٨٧، ص ٤٨٨.

[146] المواقف: الأمير عبد القادر مجلد ١ ص ٤٨٧، ص ٤٨٨.

[147] المواقف: الأمير عبد القادر مجلد ١ ص ٤٨٧ ، ص ٤٨٨.

[148] انظر: عبد القادر ثقافته: محمد السيد محمد علي الوزيري. ص ٨٤ – ٨٦ الجزائر عام ١٩٨٦.

[149] المواقف الأمير عبد القادر . جـ ١ ص ١٦٦.

وقد صدر الأمير في رأيه هذا عن دراسة عميقة ومتأملة في القرآن الكريم، وعن معايشة تامة لمصدري هذا الدين من القرآن والسنة، فكانت لديه أسبابه القرآنية والتجريبية الذوقية واللغوية فضلاً عن الإلهامية الصوفية التي ورثها عن قوم ثقات سبقوه "فالقرآن جامع لكل شيء، لأنه ورد تبيانًا لكل شيء، فما فرط تعالى في الكتاب من شيء" على حد تعبيره.

جـ - رأيه في القضاء والقدر:

يمكننا أن نتبين رأي الأمير عبد القادر في القضاء والقدر من تصفحنا لمؤلفاته، ومن متابعتنا لسيرة حياته وجهاده. وهو أولاً وقبل كل شيء يؤمن، كما يؤمن كل مسلم، بأن القضاء والقدر كله من ا تعالى، وأن الأمر من قبل ومن بعد، إلا أن للأمير ولكثير من الصوفية كالقشيري والجنيد والطوسي والغزالي نظرية وتطبيقًا دقيقين للسببية وللارتباط الوظيفي بين السبب والمسبب، والمقدمات والنتيجة، دون تحايل ولا تهاون، فهم جميعا يؤمنون بالعلاقة الضرورية الواقعة بين السبب والمسبب، ويرون تلازما طبيعيا قائما بين الظواهر ونتائجها والأسباب وما يترتب عليها من آثار، إلا أنهم يرون أن ا تعالى، على الحقيقة هو الفاعل والسبب الأقصى، فلا فعل للأشياء والأسباب بنفسها، وإنما الآثار والنتائج تكون عند اجتماع الأسباب والظواهر، كما يخبرنا بذلك مثلاً الغزالي في "تهافته"، ومن هنا ونظرا لأنهم جميعا يؤمنون بقانون السببية الذي جعله ا تعالى قانونًا من قوانين الطبيعة، فهم يأخذون بالأسباب ويضعونها في الاعتبار، إلا أن قلوبهم معلقة با تعالى الذي هو من وراء الأسباب، وهذا يتضح حين يعالج مثلاً الأمير عبد القادر مقام "التوكل" في المواقف[150] فيقول بأنه الثقة والاعتماد على ا في الرزق مع الأخذ بالأسباب "فليس التوكل إلا الثقة والطمأنينة، لا ترك الأسباب، مع الشك والاضطراب، فليس هذا من التوكل المطلوب في شيء، ولو كان ترك السبب والحركة، وكلاً للزم إذا وضع الخبز بين يدي هذا المتوكل، أن لا يتناوله ويرفعه إلى فيه، فإن هذا سبب وحركة لوصول الخبز إلى بطنه، وإذا وضع الخبر في فيه يلزمه أن لا يمضغه ولا يحرك لسانًا ولا غيره، فإنها أسباب لوصول الرزق إلى البطن".

والأمير بذلك لا يوضح موقفه الآخذ بالأسباب فحسب، بل هو يحارب تيارا ساد في زمن الجهل والتخلف بين بعض المتصوفة الذين اعتقدوا أن الأخذ بالأسباب يقدم في التوكل وينال من إيمان الصوفي بالقضاء والقدر.

إلا أن الأمير يعلل ترك بعض الصوفية للأسباب، أحيانًا بأنه نوع من الرياضة النفسية، من أجل تربية النفس وترويضها على الوثوق بمسبب الأسباب يقول: "وما اعتنى القوم رضي ا عنهم بمقام التوكل وعدوه من رؤوس المقامات وتكلفوا ترك الأسباب، إلا ليحصلوا على الثقة وعدم

---

[150] المواقف: جـ ١ الموقف ١٦٥.

الاضطراب، عند فقد الأسباب وهذه هي الثمرة والنتيجة لما تكلفوه[151] فالصوفية في نظر الأمير قوم يسعون في الجهاد والكسب والطلب آخذين بالأسباب وإن كانت نفوسهم لا ترى إلا مسبب هذه الأسباب، وهذا البعض منهم الذي يخرج عن هذه القاعدة لا يرجون من خروجهم هذا إلا نوعا من التريض النفسي لتحقيق درجة إيمانية رفيعة، فإذا تحققت ثمرة مقام التوكل لهؤلاء الصوفية كما يقول الأمير "رجعوا إلى استعمال الأسباب العادية والحركات المعهودة لحصول ما يطلبون، كسائر الناس، فطلبوا وأجملوا في الطلب[152] ولذلك يرى الأمير أن القاعدة عند الصوفية الحقة هي التمسك بالأسباب والأخذ بها" فلا يقول بترك الأسباب إلا صاحب حال أو جاهل بالطريق وبالسنة" [153].

والأمير بذلك يقدم لنا تفسير صوفيا صحيحا لموقف السالك من قضية الإيمان بالقضاء والقدر ويعبر لنا عن ظاهره وباطنه، حقيقة إيمانه الداخلي، ومجال نشاطه وسلوكه الخارجي يقول عن هذا الموقف: "فمن نظر إلى باطن العارف وجده جبلاً لا يتحرك، ثابتًا لا يتدكدك، ليس له نظر إلى الأسباب ولا عبر له بها" وهذا لعظيم ثقته في ا تعالى وتدبيره له.

ويقول: "ومن نظر إلى ظاهره، رآه كالطائر من غصن إلى غصن ومن شجرة إلى شجرة"[154] ويستشهد لذلك بأفعال النبي صلى ا عليه وسلم، على الرغم من إيمانه المطلق بحسن تدبير ا له وقربه من ا تعالى الشديد وهو نبيه ورسوله إلى البشر. يقول: "فهذا سيد العارفين وإمام المتوكلين صلى ا عليه وسلم جند الأجناد وظاهر بين درعين، وحفر الخندق، وادخر قوت سنة، وتداوي واحتجم، واكتوى، وما ترك سببا إلا فعله"[155].

ونحن نجد في جهاد الأمير عبد القادر وسيرة حياته، خير دليل على أخذه بالأسباب، ووضعها موضع الاعتبار، فقد أنشأ دولة كادت أن تكون عظيمة في تاريخها وتكوينها الإداري والعلمي والثقافي والعسكري، لولا غدر فرنسا وحملتها الاستعمارية الضارية على بلاده، وقد أذاقها الأمير بعسكره وجيشه كثيرا من المرارة وكبدها كثيرا من الخسائر في الأرواح والأموال طوال سبعة عشر عاما، ولكن الظروف الاجتماعية والاقتصادية لبلاده، وكذلك الظروف الدولية غير المواتية حينئذ ساعدت على انكساره في حربه وجهاده، خاصة بعد أن تخلى عنه الجيران من الأمراء والسلاطين، الخائفين على عروشهم ومالكهم، فيأتي استسلام الأمير المشرف، بعد بذل الجهد والعمر كله في تلك الحرب الضروس، وهو لم يستسلم إلا وهو رافع الرأس ومعتقد في غد أفضل.

---

[151] المواقف: الأمير عبد القادر مجلد ١ الموقف ١٦٥.

[152] المواقف: الأمير عبد القادر مجلد ١ الموقف ١٦٥.

[153] المواقف: الأمير عبد القادر مجلد ١ الموقف ١٦٥.

[154] المواقف: الأمير عبد القادر مجلد ١ الموقف ١٦٥.

[155] المواقف: الأمير عبد القادر مجلد ١ الموقف ١٦٥.

وحين أراد الإمبراطور، لويس نابليون الثالث وكان ذكيا ولكنه سطحي الثقافة، من الأمير أن يكف عن اتهامه لفرنسا بالغدر، وما أكثر المواقف التي غدرت فيها فرنسا بالأمير وبلاده، مستغلاً نابليون لعقيدة "القضاء والقدر" التي يعلم أن الأمير يؤمن بها، ومعتقد الخطأ أنها توجب عليه الخضوع والاستسلام، والاعتقاد بأن استيلاء فرنسا على الجزائر ما وقع إلا بإرادة ا [156].

أفهمه الأمير خطأه، وأن المسألة تعود في النهاية إلى أسباب ومسببات كثيرة على الإنسان الأخذ بها، وأما إفضاء الوسيلة لغير ما تقتضي من الغايات فسببه الخطأ في الممارسة، أو فقدان الاستعداد أو خلل فيه، وفي مجال الحرب على الخصوص يشتد الاحتياط في التماس الأسباب الصحيحة، فكيف إذا سارت خطأ وفي غفلة من المحاربين والمخططين، وكثرت الخيانة وانعدم النصير والمساعد، واجتمعت الظروف الدولية والخارجية، لا شك أن كل تلك العوامل لا بد أن تؤدي إلى ما انتهى إليه من نتائج[157].

ورغم ذلك كان الأمير كثيرا ما يذكر انتصاراته على أعدائه في معاركه الطاحنة معهم، وأصبحت ذكريات انتصاراته لازمة لمراسلاته ومناظراته. بل إنه ظل يتحدث عن نتائج التماسه أسباب النصر وسع الطاقة عندما عاد من المهجر لزيارة فرنسا بعد عشرة أعوام من إطلاق سراحه، فاستنكر أن يخلو المعرض الحربي في "سراي فرساي" من معاركه وآثاره الحربية، وسأل الجنرالات الحاضرين عما إذا كان ذلك قد حدث، فأيدوه لأن بعضهم شاهدها في ميدان القتال فعلاً وشارك فيها معه[158]. وقد أشار مرة إلى" قضاء ا حقًا" ولكن ليتعجب من "الانقلاب العجيب" في وضع الحرب أوزارها على تبادل مواقع الهزيمة والنصر بينه وبين الفرنسيين[159]. فكأن تلك النهاية لم تكن في حسبانه سنوات طويلة.

٥- مؤلفاته وآثاره:

ليس للأمير عبد القادر مؤلفات كثيرة، فقد شغله الكفاح المسلح طويلاً واهتم بالتدريس والتربية الروحية والفكرية لتلاميذه ومريديه أكثر من اهتمامه بتأليف الكتب ووضع المصنفات. ورغم هذا نجد له آثارا شعرية رائعة وبعض المؤلفات النثرية العميقة في بابها. ومن هنا يمكننا تقسيم آثاره إلى آثار شعرية وأخرى نثرية.

---

(156) تحفة الزائر. جـ ٢ ص ٧٢٤.

(157) تحفة الزائر . جـ ٢ ص ٧٢٤، ٧٢٥.

(158) تحفة الزائر. جـ ٢ ص ٧٢٥.

(159) تحفة الزائر . جـ ٢ ص ٥١٩٠، ص ٥٢٧.

أولاً: الآثار الشعرية:

ليس الذي بين أيدينا من أشعار كل ما نظم الأمير عبد القادر، فقد نم شعرا في شـبابه ضـاع معظمه لسببين على الأقل هما:

انهماك الأمير في بناء دولته الفنية وحربه ضد المستعمر الفرنسي من جهة، واستيلاء العـدو على مكتبة بيته في مدينة "الزمالة" التي أودع فيها مذكراته الخاصة، وربما بعض أشعاره مـن جهـة أخرى. ويؤيد هذا القول ابنه الأمير محمد، جامع "الديوان" نزهة الخاطر[160].

"وهذا آخر ما عثرت يدي عليه من نظمه؛ حيث إنه لم يعتن بجمعه أيام الحياة، ولذا أعجزنـي جمع بعضه، وأكثره قد حل به الشتات".

وقد عالج "الدكتور محمد ناصر"[161] في منتخباته هذه المسألة فقال: "بدأ الأمير عبـد القـادر كتابة الشعر شابا، كما تدل على ذلك وثيقة البيعة الأولى التي تصفه بالشاعر الثائر، وقـد دأب علـى كتابة الشعر على أخريات أيام حياته، ولم ينصرف عنه في كل حالاته، سواء فـي مرحلـة المقاومـة والجهاد في الجزائر، أم في مرحلة الاعتقال بفرنسا أم في مرحلة الاستقرار في الشام، ومن المؤسـف أن يكون القسم الأول من شعره قد ضاع أغلبه، ويغلب على الظن أنه ضاع خلال هجـوم الفرنـسيين على الزمالة، واستيلائهم على مكتبة الأمير وأوراقه الخاصة".

وأهم آثار الأمير الشعرية الموجودة:

١ - الديوان: وكانت المحاولة الأولى لجمعه لفرنسا عام ١٨٤٨ م حيث ظهـر فيهـا كتـاب بعنوان "أشعار الأمير: ضمت بعض أشعار الأمير، والقوانين العسكرية التي كانت سارية المفعول فـي جيشه، عند ما كان قائما بأمر الجهاد، مع مقدمة فرنسية، أما المحاولة الثانية فقد قام بها ابنـه الأميـر محمد الذي جمع شعر والده الأمير في ديوان صغير عنوانه "نزهة الخاطر في قريض الأميـر عبـد القادر" وهي مجموعة حوت من شعر الأمير ما لم يثبت في كتابه المسمى بالمواقف. وقـد تـم طبـع الديوان في مصر عام ١٣١٧ هـ/ ١٨٩٩ م بدليل أن مجلة الهلال ذكرت الديوان تحت عنوان "بـاب التقريظ والانتقاد"[162].

وفي مطلع الستينيات من هذا القرن، بدأت أولى المحاولات العلمية الصحيحة لتحقيق الـديوان، وضبطه وشرحه مع الدكتور "ممدوح حقي" فظهرت طبعته الأولى عن دار اليقظة العربية في دمـشق.

---

[160] نزهة الخاطر في قريض الأمير عبد القادر. ص ٥٣.

[161] منتخبات من شعر الأمير عبد القادر: د. محمد ناصر . ص ١٣

[162] مجلة الهلال: مجلد ٧. جـ ٢٠ . ص ٦٢٩ القاهرة عام ١٨٩٩م.

ونشر بمناسبة مرور مائة عام على حمايته، - كما يقول المحقق – لنصارى الشام في فتنة عام ١٨٦٠ م، ثم توالت طبعاته المحققة بعد ذلك.

وقد رتب الديوان تبعا لفنونه، في طبعته الأولى، فإذا هي خمسة: الفخر، والغزل، والمساجلات، والمناسبات والتصوف. ومن هنا كان ترتيب الديوان ترتيبا موضوعيا، تبعا لموضوعاته وفنونه، لا ترتيبا تاريخيا، أو ألبفائيا، وقد قام باحث حديث[163]، بهذا الترتيب الأخير، فقدم فهرسة علمية للديوان ورتب قصائده ترتيبا موضوعيا حسب الموضوعات الشعرية، وترتيبا ألفبائيا، حسب حروف الروي وترتيبا عروضيا، حسب البحور الشعرية الخليلية.

والأمير في قصائده في الديوان طرق كل أبواب الشعر من مدح وعتاب، وفخر وتوسل، وشوق وتغزل، وتهنئة ومطارحة، وما إلى ذلك من الأغراض الشعرية، وزيادة على هذا امتاز بشيء آخر هو تصويره الصادق لحالة وطنه في روائع أشعاره وقصائده، فجاء شعره صورة طبق الأصل لما يقوله الأدباء والكتاب اليوم في تعريف الشعر من أنه" تصوير وتعبير".

وجاءت براعة الأمير الشعرية في كونه استطاع أن ينظم هذا الشعر، ويتعاطى قريضه، وهو ما يزال يافعا دون الخامسة والعشرين من سنه، لم يسبق له أن تعلم موازين الشعر ومقاييسه، ولا سبق أن تلقى أصوله ومبادئه على أستاذ خبير في فنون الشعر وأصوله.

وأورع شعره ما مقاله زمان الحرب والثور، جاء على أشد ما يكون في قوة المعنى، ومتانة الأسلوب ويشعر بهذا قارئ قصائده من غير المتخصصين، فقد صور واقع البلاد والشعب، وأعطى لنا صورة واضحة قوية عن شخصية وبسالة جيشه الفتى، كما جسم مظاهر تلك الوقائع الحربية المهولة، وقد انفرد الأمير في عالم الشعر، كما يقول أحد الباحثين، بأنه "كان أول شاعر في المغرب العربي عامة، وفي الجزائر بالخصوص، تعاطي شعر الحماسة، وطرق باب القريض الملحمي ليفتحه على مصراعيه لمن يأتي بعده من فحول الشعراء، ورواد الحماسة والملاحم"[164].

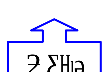
وعلى كل حال فالديوان يعطينا صورة واضحة عن قيمة الأمير الأدبية، وقوته الشعرية، ومقدرته الفنية في الفخر والحماسة، والمدح والتغزل والتصوف وغيرها[165].

---

[163] انظر: الأمير عبد القادر متصوفًا وشاعرا: فؤاد صالح السيد. الجزائر. ص ٩٢ عام ١٩٨٥ الفهارس من ص ٢٩٧ – ٢٩٩.

[164] الأمير عبد القادر رائد الكفاح المسلح: د. يحيى بو عزيز.

[165] يمكن الرجوع إلى طبعة حديثة محققة للديوان تشرح أشعاره وقصائده شرحا موضوعيا وفنيا وتقدم تحليلاً أدبيا بنيويا لشعره للدكتور زكريا صيام. ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر سنة ١٩٨٦.



٢- القصائد الواردة في مقدمة كتابه المواقف:

وردت هذه القصائد في نهاية مقدمة كتاب "المواقف" وقد بلغ عددها تسع عشرة قصيدة: ثـلاث منها وردت في الديوان، والباقية وردت في مقدمة كتاب المواقف[166] وتتميز بأنها تنتمي إلى فن أدبي معين، وهو فن التصوف.

ثانيا: الآثار النثرية:

١- **وشاح الكتائب وزينة الجيش المحمدي الغالب:** رسالة في فنون الحرب، وتتضمن ملخص الأنظمة والقوانين العسكرية، وأنواع المكافآت والعقوبات التي سنها الأمير لجيشه الفتي. وتدل على ما كان للأمير من بعد النظر وثاقب الرأي في أمور الحرب، ونظام الجيوش، مع حداثة عهده بـالحرب. وعلى الرغم من أن الذي صاغ هذه الرسالة هو كاتب للأمير يدعي "قدور بن أرويلة" إلا أن دوره منها الأفكار والتوجيهات العامة[167] وقد اعترف بذلك صراحة صاحب "تحفة الزائر" حين قال: "وضع للجند النظامي قوانين وضوابط، جمعها بعض كتاب الجند في رسالة سماها "وشاح الكاتب وزينـة العـسكر المحمدي الغالب"[168].

وقد اعترف جامع الرسالة في خطبته بأن الرسالة من إيحاء الأمير عبد القادر وتصميمه، فأمر الأمير بكتابة هذه الرسالة، وسن القوانين التي ذكرت فيها من أهم الدوافع التـي دفعـت بكاتبنـا لأن يحرر هذه الرسالة على ما هي عليه، وقد استدل محقق الكتاب أن الرسالة من تأليف "قدور بن أرويلة" فقدم عدة أسباب وأدلة بثبوتها لا تدع مجالاً للشك.

وقد ظهرت ترجمة "وشاح الكتائب" بالفرنسية لأول مرة على يد المترجم "روسيتي "Rosettly في كانون الأول عام ١٨٤٣ م، وطبعت باعتناء الجنرال "ماري" بعنوان "قوانين من الأمير عبد القادر إلى جيشه النظامي". وظهرت أول طبعة عربية للكتاب في آذار عام ١٨٤٨ م ثم توالـت بعـد ذلـك طبعات الرسالة. وكان آخرها طبعة محققة تحقيقًا علميا دقيقًا للأستاذ محمد بن عبد الكريم بالجزائر في سبتمبر عام ١٩٦٨ م.

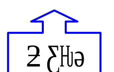
٢- **المقراض الحاد لقطع لسان الطاعن في دين الإسلام من أهل الباطل والإلحاد:** رد بها على الطاعنين في دين الإسلام، ممن عموا عن فضائله، وتشبثوا بما ليس منه في شيء من بدع المـارقين وأهل النفاق. وهذا الكتاب فيه من حجج دامغة وأدلة منطقية ساطعة، ما يثبت وجود الخالق العظيم لهذا الكون الهائل، ويبرهن على مدى صحة وصدق الكتب السماوية، خاصة كتاب الإسلام الأول، القـرآن

---

[166] انظر قصائده الصوفية في مقدمة كتاب المواقف. جـ ١.

[167] مقدمة تشرشل: لأبو القاسم سعد ا . ص ٢٨.

[168] تحفة الزائر: ص ١٩١ – ١٩٢.



الكريم. وقد ألفه الأمير خلال إقامته أسيرا في أمبواز بفرنسا[169]، فتعتبر هذه الرسالة أولى المؤلفـات النثرية التي ألفها الأمير خارج أرض الجزائر بعد نفيه عام ١٢٦٤ هـ وقد ألفها تحت إلحاح تلاميـذه ومريديه للرد على طعون نصرانيين متعصبين في فرنسا ضد الإسلام.

ورتب الأمير عبد القادر الرسالة على مقدمة وثلاثة أبواب:

أما المقدمة: ففي الكلام على العقل وما يتعلق به. وجعل الباب الأول فـي إثبـات الألوهيـة. والباب الثاني: في إثبات النبوة مع الرسالة. أما الباب الثالث: وهو موضوع الرسالة: ففيه بيان ما ورد في الشرع من "وجوب الوفاء، والأمر به، وترك الغدر والنهي عنه، ومـا يتعلـق بـذلك، كالـصدق والكذب"[170].

ويعلل الأمير ترتيب الأبواب على الشكل السابق بطريقة عقلية منطقية؛ إذ إنه يعتبر أن "ترتيب هذه الرسالة، وصفًا، هو بحسب الترتيب عقلاً لأن إثبات الألوهية، مرتب على وجود العقـل، وإثبـات النبوة والرسالة مرتب على إثبات الألوهية، وبيان ما يحمد وما يذم من: الأقوال والأفعال، والـصفات، مرتب على إثبات النبوة والرسالة"[171].

وهذه الرسالة حصيلة عمر طويل تقي في الاستقصاء، والبحث، والتنقيب، والتمحـيص، كمـا روي ونقل ونشر عن الديانات والرسل والأنبياء والكتب السماوية[172].

وهو ما يذكرنا بالمحاولات العلمية الدقيقة لتلك الردود التي كان يقـوم بهـا عبـاقرة الفكـر الإسلامي، في عصر الإسلام الذهبي حين كان ينبري أساتذة المذاهب الكلامية في الرد على النصارى أو اليهود أو الدهرية، ويجددها في العصر الحديث الأمير عبد القادر ثم يتابعه الأفغاني ومحمد عبـده في مؤلفاتهما بعد ذلك بعدة عقود من السنين.

٣- **ذكرى العاقل وتنبيه الغافل:** وهذه رسالة مطولة من مسائل جمة في مختلف العلوم كالتاريخ والفلسفة والدين والإصلاح الاجتماعي، والأخلاقي. وهي رسالة في الحكمـة والـشريعة وتوافقهمـا، ومحاولة إيجاد صلة بينهما، واقتران أحداهما بالأخرى، وائتلافهما نصا وروحا. ولعل أهـم الأسـباب التي دفعت الأمير إلى تأليف هذه الرسالة، ميله إلى المباحث الفلسفية التي اطلع عليها خـلال قراءاتـه لكتب فلاسفة اليونان والمسلمين، وقد زاد الميل فيه نتيجة احتكاكه ببعض العلماء الفرنسيين في أثنـاء اعتقاله بأمبواز، وتعرفه إلى المظاهر الحضارية والعلمية، واطلاعه على تقدمهم الفكري والفلسفي[173]،

---

[169] تحفة الزائر: ص ٥٤٢.

[170] تحفة الزائر: ص ٥٤٣ – ٥٤٤.

[171] تحفة الزائر: ص ٥٤٤.

[172] نشر هذا الكتاب عدة نشرات، ولكن بغير تحقيق علمي دقيق.

[173] ذكرى العاقل وتنبيه الغافل: للأمير عبد القادر. ص ٢٠، ٣١.

فزاده ذلك اتساع فكر، وتفتح ذهن، وقد ألف الأمير رسالته خلال، إقامته في بروسـة Brousse هـذه الإقامة التي امتدت ما يقرب من السنتين والنصف، وخاصة بعد أن كتب العلماء الفرنسيون اسمه فـي المجمع العلمي الفرنسي، وجعلوه عضوا مراسلاً به، ونظموه في سلك عظماء المفكرين.

وقد قسم الرسالة إلى مقدمة وثلاث أبواب: وفي المقدمة حث على النظر وذم التقليد. وتحـدث في الباب الأول على فضل العلم والعلماء. وفي الباب الثاني تحدث عن العلم الشرعي، وفيه فصل في إثبات النبوة التي هي منبع العلوم الشرعية، وفيه تنبيه في معرفة النبي، وما يتعلق بالنبوة وخاتمة فـي المكذبين للأنبياء. والباب الثالث تحدث فيه عن فضل الكتابة، وفيه فصل في الكلام على كتابات الأمـم ومن وصفها وما ينجر إلى ذلك، وتنبيه في بيان حروف الكتابة العربية، وخاتمة في احتياج الناس إلى التصنيف وما يتعلق وانقسام الناس بحسب العلوم والمعارف واختلاف المذاهب[174].

ومع أن أكثر مباحث هذه الرسالة مطروحة، فإن أكبر فضل يستحقه الأمير هو "جمال التنسيق وحسن ترتيب هذه المباحث المتشعبة، والنظرات الواعية المتحررة التي تنظمها من أولها إلى آخرهـا. [175] وأسلوب الأمير في هذه الرسالة كما يقول أحد الباحثين [176]. تختلف أسلوب القرون الوسطى" ولذا يعد عبد القادر واحدا من تلك الفئة المجددة التي جفت الطرق المتكلفة وأنست إلى الأسـلوب المرسـل المطبوع".

وإلى جانب التجديد الأسلوبي، هناك تجديد موضوعي، فالرسالة إسهام لا بأس به من الأميـر عبد القادر في الأبحاث الفلسفية على عهده، وقد أصدرها الأمير في عهد كانت فيه مباحث معاصـريه من أعلام الفكر لا تخرج عن دائرة الأبحاث الدينية والأدبية وغيرها[177].

٤- المواقف في التصوف والوعظ والإرشاد: وهذا الكتاب هو أهم مؤلفات الأمير عبد القـادر، في ثلاثة مجلدات، موضوعه التصوف، وهو على غرار "الفتوحات المكية" للشيخ محـي الـدين بـن عربي، وفيه مباحث صوفية، وتفسير آيات القرآن الكريم، وشرح لأحاديـث نبويـة، وبـسط للعقيـدة الإسلامية بأسلوب صوفي رفيع، وقد ألف الأمير كتابه هذا في المرحلة الثالثة من حياته، عند استقراره النهائي في مدينة دمشق[178].

وقد ألفه تحت إلحاح ثلاثة من العلماء الأفاضل كانوا يترددون عليه في داره، ورجوه أن يدون ما يتكلم به في مجالسه. فكان ذلك نواة الكتاب الصوفي عرف فيما بعد باسم "المواقف" ويري" جـواد

---

[174] ذكرى العاقل: للأمير عبد القادر. ص ٣ - ، ٣١.

[175] الأمير عبد القادر حياته وأدبه: رابح بونار. ص ٢٧ مجلة آمال الجزائرية. عدد ٨ تموز عام ١٩٨٠.

[176]تاريخ الأدب الجزائري: محمد بن عمرو. ص ٢٦٥.

[177] الأمير عبد القادر حياته وأدبه: رابح بونار. ص ٢٢.

[178] التصوف والأمير عبد القادر: جواد مرابط. ص ١٩.

مرابط" أن الشيخ عبد الرازق البيطار، كان أول من اقترح على الأمير أن يدون ما يذكره في مجالسه"[179].

ومن يتصفح المواقف، يتبين له أنه عبارة عن أحاديث الأمير، ودروسه ومواعظه التي كان يلقيها على الطلاب والعلماء، ولهذا فإن الكتاب لم يؤلف في فترة زمنية قصيرة معينة، ولكن ألف في فترة طويلة متباعدة، ويرجح أحد الباحثين[180] أنه ألف بين سنتي ١٢٧٢ – ١٣٠٠ هـ وهي الفترة الأخيرة من حياة الأمير في دمشق، ويبدو فيه تعدد أماكن تأليفه وأزمنته، بحسب الواردات الإلهية التي كانت ترد على الأمير، فقد كان يسجل كثيرا من إلهاماته وكشوفاته الصوفية، فهي تارة في مكة وطورا في المدينة، وأحيانًا في دمشق، التي كانت سباقة إلى إخراج الكتاب إلى حيز النور عام ١٣٢٩ هـ / ١٩١١ م بأجزائه الثلاثة، ثم طبع عدة طبعات بالقاهرة آخرها، محققة تحقيقًا علميا دقيقًا، وتمتاز عن غيرها بأنها بوبت ورتبت بالاستناد إلى النسخة الأم الأصلية المكتوبة بخط الأمير، وقوبلت على نسخ أخرى كثيرة وقام بمراجعتها وتصحيحها لجنة من أكابر علماء دمشق وهذا الكتاب الذي هو موسوعة للأمير في التصوف، اعتبره ابنه الأمير محمد "لعقد تأليفه واسطة النظام، ولمطلع مجده، بيت القصيدة وحسن الختام.. [181]. وعده "النبهائي" من أجل مناقبه وأعظم كراماته.. وهي مواقفه التي جمع فيها وارداته الإلهية، وعبر عنها بالمواقف"[182]. وفي رأي "شكيب أرسلان" أنه "لا يوجد نظيره في المتأخرين"[183].

٥- تعليقات الأمير على جده عبد القادر [184] في علم الكلام: ويبدو أن الأمير دون هذه التعليقات في المرحلة الأولى من حياته، بعد عودته من المشرق وتأديته فريضة الحج في عام ١٢٤٣ هـ، لأن هذه الفترة كانت فترة تثقيف ومطالعة وبحث وتنقيب بالنسبة للأمير، فلا يستبعد أن يكون خلال مطالعاته، العديدة والمتنوعة، قد وقع نظره على الحاشية، فعلق عليها بما يسعفه الحال والمقال. وهي دليل على أن الأمير كان متمكنًا في علم الكلام، وإلا لما استطاع أن يبدي بعض الملاحظات والآراء والتعليقات على حاشية موضوعها في التوحيد وعلم الكلام.

---

(179) التصوف والأمير عبد القادر: جواد مرابط. ص ٨٩.

(180) الأمير عبد القادر متصوفا وشاعرا: فؤاد صالح السيد. ٩٩.

(181) تحفة الزائر: ص ٩٣٢.

(182) جامع كرامات الأولياء: يوسف إسماعيل النبهاني. جـ ٢ ص ١٠٠.

(183) حاضر العالم الإسلامي: شكيب أرسلان . مجلد ١ جـ ٢ ص ١٧٣.

(184) المعروف بابن خده، تبحر في العلوم، كالنجوم والتوحيد والحساب والفرائض والفقه، أخذ العلم عن شيوخ أجلاء منهم: محمد بن يوسف السنوسي (٨٣٢ – ٨٩٥ هـ) المشهور والمدفون بتلمسان وله حاشية في التوحيد التي علق عليها الأمير: انظر تحفة الزائر: ص ٩٢٧.

٦- **رسائل متنوعة:** تعددت رسائل الأمير وكتاباته إلى معارفه ومحبيه، وهي رسائل لو جمعت لبلغت عدة مجلدات. فكثيرا ما كان يوجه الأسئلة إلى مجالس العلماء وكبار الفقهاء طيلة حياته، سـواء بالمغرب الأوسط أو الأقصى، أو بالمشرق وفرنسا، وكان يجيب بنفسه عن القضايا التي ترد عليه من كبار علماء الإسلام ومفكري العرب، مسهبا في الإجابة عن تلك الاستفسارات، وأهم هذه الرسائل:

أ- رسائله السياسية: التي تبادلها مع رؤساء حكومات فرنسا وقوادها الحربيين: وهي رسائل كان يتبادلها الأمير عندما كان مجاهدا في الجزائر، وأثناء وقوعه أسيرا في أمبواز بفرنسا، وتمتاز هذه الرسائل بالخبرة السياسية وبعد النظر في الشئون الحربية. وخاصة رسائله التي تبادلها مع الجنرال "بيجو" وهي تتسم بالشدة والصراحة والواقعية[185].

ب- وسائل الأمير إلى الأسقف الفرنسي دوبوش Dapuch أسقف مدينة الجزائر فقـد اختـار عبـد القادر شريكة الأسقف في ملتقى سيدي خليفة لأفكاره وتأملاته. وكانت مراسلاته الأمير لهـذا الأسقف لا تنقطع "وهذه المراسلات قلما أشار إليها الكتاب، ولعلها لو وجدت، تكون مـصدرا هاما لفهم روح الأمير الدينية والاجتماعية"[186].

أجوبة الأمير عن العشرين سؤالاً التي وجهها إليه الجنرال دوماس[187] Daumas وهـي أسـئلة تتعلق بعادات العرب والمسلمين، وتقاليدهم في الزواج، ومقارنة حال المرأة العربية بالمرأة الأجنبيـة، وقد أجاب الأمير عن كل هذه الأسئلة موضحا ومصححا جملة من المفاهيم الخاطئة، التي كانت ترسخ في أذهان الغربيين منذ العصور الوسطى، مستعينًا في كل ذلك بالتوراة والإنجيل والمشاهد الواقعيـة، ومعبرا في النهاية عن وجهة "نظر الإسلام التي هي جوهر أفكاره واتجاهاته في هذا الشأن.

د- مراسلات الأمير عبد القادر مع إسبانيا وحكامها العسكريين بمليلية: وكـان قـد جمعهـا د. ميكيل دوايبالزا بإسبانيا. وقام بترجمتها والتعليق عليها الدكتور يحيى بو عزيز، وطبعت بالجزائر عام ١٩٨٥ بعد أن قدم لها بدراسة صغيرة[188].

هـ- رسائله إلى الزعيم اللبناني يوسف بك كرم[189]: وهي رسائل سياسية على درجة كبيـرة من الأهمية والخطوة، لأنها تبودلت في أثناء حركة عام ١٢٩٤ هـ الاستقلالية. ومحاولـة الولايـات

---

[185] تحفة الزائر: وردت هذه الرسائل في مواضع متفرقة من تحفة الزائر للأمير محمد بن الأمير عبد القادر.

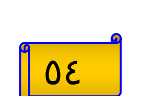
[186] تشرشل. من تعليق المترجم أبي القاسم سعد ا في هامش الصفحة ٢٥٨. وانظر الأمير عبد القادر الجزائري: فؤاد صالح السيد. ص ١٠٣.

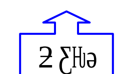
[187] انظر أسئلة الجنرال وأجوبة الأمير في "تحفة الزائر" ص ٧٣٠ – ٧٦٥.

[188] انظر مراسلات الأمير عبد القادر مع أسبانيا وحكامها العسكريين: ترجمة د. يحيى بو عزيز. الجزائر عام ١٩٨٥م.

[189] انظر رسائل يوسف بك كرم للأمير عبد القادر في: يوسف بك كرم في المنفى: سمعان الخازن.

السورية الاستقلال عن الدولة العثمانية. وقد شجع يوسف بك صديقه الأمير عبد القادر إلى القيام بهـذه الحركة، ودعاه بإلحاح شديد إلى قيام وحدة عربية برئاسة الأمير نفسه.





الفصل الثالث

الأمير عبد القادر وتصوفه

الأمير عبد القادر وتصوفه

١- تعريف الأمير وفهمه للتصرف:

إذا كان أحد أساتذة[190] التصوف يرى أن التصوف هو "صدق التوجه إلى ا بما يرضاه من حيث يرضاه". ويقول الحريري "هو: "الدخول في كل خلق سني والخروج من خلق دني"[191] ويقول الجنيد عنه" أن تكون مع ا بلا علاقة"[192] فإن الأمير عبد القادر يرى أن التصوف هو "جهاد النفس في سبيل ا أي لأجل معرفة ا وإدخال النفس تحت الأوامر الإلهية، والاطمئنان والإذعان لأحكام الربوبية، لا لشيء آخر من غير سبيل ا "[193].

وإذا كان كل صوفي يعرف التصوف. كما يقول "ابن خلدون"[194] بما يتفق مع حاله، فإن هذا التعريف الأخير للأمير يتفق مع وقفته التاريخية في الجهاد ضد العدو، وضد النفس، فهو دائما الفارس الذي يخوض المعارك، وفي الخارج مع العدو أو في الداخل مع النفس الأمارة والصوفية في نظره هم هؤلاء الذين عليهم "أن يكونوا في جميع أحوالهم وتصرفاتهم، حاضرين مع ا تعالى"[195].

ومن هنا يحذر الذين تكون عبادتهم "مشوبة بأغراض نفسيه وحظوظ شهوانية"[196] حيث يجب أن تكون العبادة خالصة لوجهه تعالى. ويسمى الصوفية "بالعارفون" و "أهل ا "[197] ويتحدث عنهم في "المواقف" مصححا بعض المفاهيم الخاطئة التي كانت قد لصقت بهم في عصره سواء في الشرق أو في الغرب العربي والإسلامي، خاصة في عصور التخاف وسيادة الخرافات، فالصوفية في نظره ليسو" هؤلاء الذين يأكلون النار ويدخلون مسامير الحديد في أشداقهم، ويدخلون التنور ويمشون راكبين على

---

[190] قواعد التصوف: الشيخ زروق المغربي. ص ٦٠.

[191] الرسالة القشيرية: القشيري . ج ص ٥٥١.

[192] اللمع في التصوف: الطوسي. ص ٤٥.

[193] المواقف: للأمير عبد القادر، مجلد ١ الموقف ٧١ ص ١٤١.

[194] المقدمة: ابن خلدون.

[195] المواقف: مجلد ١ الموقف ١٢ ص ٤٦.

[196] المواقف: مجلد ١ الموقف ٤ ص ٣٥.

[197] المواقف: مجلد ١ الموقف ٨ ص ٣٩.

ظهور الأشخاص ليعرفهم العوام.... لأن ما يصدر عن هؤلاء منه ما هو شعبذة، ومنه ما هو سيمياء، ومنه ما هو خواص نفسية يتوارثونها بينهم"[198].

فالتصوف في نظره إخلاص العبادة تعالى، ومراقبته في السر والعلانية، ومن هنـا يعتبـر "الصوفية هم سادات طوائف المسلمين"[199].

والتوجه إلى ا تعالى بمنهج التصوف، في نظر الأمير وعامة الصوفية هو التوجه إليـه بعـد التحقق بمرتبتي الإسلام والإيمان، وعبادة ا بمرتبة الإحسان طبقًا للحديث النبوي الـشريف، الـذي يجعل درجات الإيمان ثلاث مستويات هي الإسلام والإيمان والإحسان في ذلك الحديث الـشهير الـذي دار بين جبريل والنبي محمد صلى ا عليه وسلم.

فإذا أردنا أن نجمل الأسباب التي دفعت الأمير إلى سلوك منهج الصوفية في الجهـاد والعبـادة وتحقيق درجات العرفان القلبية والروحية، أي في السلوك والمعرفة معا، فسنجد أنها كثيرة ومتعـددة، أهمها نسبة وانتماؤه إلى آل البيت النبوي الشريف، وهو النسب العفوي الطبيعي، الذي كان يفتخر بـه وخاصة حين يفسر الآية الكريمة "إنما يريد ا ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا"[200].

حيث يرى أنهم موضع العناية الإلهية خاصة لو اجتمع مع النسب الروحي الإيمـاني المكتـسب بالإرادة والمجاهدة، ويرى أن هناك نوعا آخر، وهم العارفون وأهل البيت الإلهي وهم المعنيون بأهـل القلوب[201]، وهؤلاء أصحاب الإرادة أو الصوفية الذين يتقربون إلى ا تعالى ويعبدونه فـي درجـة الإحسان، ومن هنا فالخير كل الخير في أن يجمع الإنسان بين البيتين النبوي والإلهي يقـول الأميـر: "فبخ بخ وكرامة على كرامة، ونور على نور. ومن كان من أهل البيت النبوي فقط فهو دون من كـان من أهل البيت الإلهي[202] حيث يعتبر أن النبي محمد صلى ا عليه وسلم: للقرابة القلبية الباطنة، أكـد من اعتباره للقرابة الجسمية الظاهرة[203].

كذلك من أسباب انخراطه في التصوف، تربيته الدينية الصوفية، فقد شب الأمير في جو تربوي ديني، فهو ابن الزوايا والمساجد، فقد نشأ في مدرسة الزاوية التي كان والده أنشأها وتلقى مبادئ العلوم الدينية والفقهية فيها[204].

---

[198] المواقف: مجلد ٢ الموقف ٢٤٨ ص ٦٧٨.

[199] المواقف: مجلد ٢ الموقف ٢٠٩ ص ٤٦٨.

[200] سورة الأحزاب: الآية ٣٣.

[201] المواقف: ج ٢ الموقف ٢٧٦ ص ٨٢٦.

[202] المواقف: ج ٢ ص ٨٢٦.

[203] المواقف: ج٢ ص ٨٢٦.

[204] أخذ في دمشق الطريقة النقشبندية وفي بغداد الطريقة القادرية.

وكان طموح الأمير الأكبر في شبابه أن يصبح مرابطًا، مثل والده الذي كان يحبه ويقتـدي بـه ويتأثر به إلى حد كبير. كذلك أراد الأمير سلوك الطريق الصوفي، لأنه طريق الخاصة من المـؤمنين، فقد كان الأمير يربأ بنفسه عن أسلوب التقليد في التدين وفي التوجه إلى ا ، وفي اكتـساب المعـارف والحقائق الإلهية ويرى أن الإنسان قد يكون محجوبا باعتقاد سبق إلى القلب، وقت الصبا، على طريق التقليد، والقبول بحسن الظن، فإن ذلك، يحول بين القلب، والوصول إلى الحقائق، يمنع أن ينكشف فـي القلب غير ما تلقاه بالتقليد. وهذا حجاب عظيم، حجب أكثر الخلق، عن الوصول إلـى الحـق، لأنهـم محجوبون باعتقادات تقليدية، رسخت في نفوسهم، وجمدت على قلوبهم[205] ولذلك يرفض تقليد الكتب وتقليد الرجال ويقول: "إذا كان تقليد الرجال مذموما غير مرضي في الاعتقادات، فتقليد الكتـب أولـى وأحرى بالذم[206].

ولا يقنع الأمير إلا باجتياز التجربة الصوفية وممارسة المجاهد الروحية، بعد أن يكسر حجـاب التقليد، ويصير غير مقلد ولا مقيد، وهو في هذه الحالة يدرك عن ا ، بفهمه القرآن الكـريم والـسنة النبوية الشريفة بالتفهم الرباني[207].

فتصير وارداته الإلهية، ومواقفه الصوفية، ودقائقه "نفثات روحية، وإلقـاءات سـبوحية بعلـوم وهيبة، وأسرار غيبية، من وراء طور العقول، وظواهر النقول، خارجة عن أنواع الاكتساب، والنظـر في كتاب"[208].

ويعطي الأمير للتجديد الديني معنًى عميقًا لذلك حيث يقول: "وأهل طريقنا – رضي ا عنهم – ما أدعو الإتيان بشيء، في الدين جديد، وإنما ادعوا الفهم الجديد في الدين التليـد"[209] فالتجديـد فـي نظره هو تجديد الفهم الديني، وتجديد الوعي والإصلاح، القائم على العودة إلى جوهر الدين وأصـوله وقواعده.

ومن هنا يتبين لنا أن التجربة الصوفية عند الأميـر والتـي اختـار اجتيازهـا فـي طريقـة لا تعتمد على التلقين والتعليم والاكتساب، ولا تتم بالجدل والمناظرة، ولكنها طريقة التحقيـق الـذوقي والممارسة القلبية والتصفية الوجدانية. ومن هنا نفهم خطابه للخاصة حتى يوجه كلامه إلى المقلد فيقول

---

(205) ذكرى العاقل وتنبيه الغافل. ص ٣٦.

(206) ذكرى العاقل: ص ٣٤، ٣٥.

(207) المواقف: مجلد ١ الموقف ٢٩ ص ٤٥٩.

(208) المواقف: مجلد ١ المقدمة ص ٩.

(209) المواقف: مجلدا ١ المقدمة ص ٢٦.

له: إذا كنت مقلدا فليس كلامي معك"[210] إذ إنه لمعرفة طريق الحق، على الناظر أن ينظـر "بعـين الإنصاف، ويرمي التقليد أو التعصب والاعتساف"[211].

وهذا المنهج الروحي الذي يسلكه الأمير عبد القادر – يراه منهج الخاصة وليس منهج العامـة، فلا يستطيع سلوكه إلا من أوتي مواهب وملكات روحية معينة، أفاض أساتذة التصوف من قبله كالإمام القشيري وأبي حامد الغزالي في توضيحها وتفسيرها، في مؤلفاتهما الصوفية العميقـة، ورأيـا أنهـا مجاهدات ومكابدات لا يستطيعها إلا من رزق التأييد والتوفيق الإلهي بعد بذلـه الـرخيص والنفـيس وقطعه كل العلائق، وإخلاصه في صدق التوجه إلى الله تعالى، فلا يبقى أمام من يريد "الحصول على الكنوز إلا كسر الأقفال فيظفر بما رواءها"[212] كما يقول الأمير.

٢- التطور الروحي للأمير عبد القادر:

وقد انتقل الأمير عبد القادر في تصوفه عبر مراحل من التطور متعددة، أهمها تلك المرحلة التي ذهب فيها إلى الشرق مع والده، لأداء فريضة الحج، فقد أتاحت له فرصة الاتصال بالطرق الـصوفية، ومجالسة علماء التصوف، والأخذ عنهم، فإذا كانت فترة حياته المبكرة مع والده في زاويته أو مدرسته هي مرحلة التلقي والقراءة والإطلاع على كتب ومؤلفات التصويف نظريا، فإن رحلته الأولـى إلـى الشرق هي رحلة الاتصال بشيوخ التصوف والأخذ عنهم، وممارسة رياضاتهم الروحية ومجاهـداتهم النفسية، فقد أخذ الطريقة النقشبندية[213] في مدينة دمشق عن الإمام أبي البهاء، ضياء الدين، النقشبندي السهروردي، فقد تردد عليه كثيرا واستمع إلى دروسه في التوحيد والتصوف.

وكذلك أخذ الطريقة القادرية[214] في بغداد عن نقيب الأشراف السيد محمود الكيلاني القـادري. وبعد عودتهما إلى الجزائر، تولى الأمير ووالده نشر الطريقة القادرية في القرى وبين القبائـل وبـث الدعاة إلى الله فيها، وكان هؤلاء الدعاة وأولئك المريدون هم رجال الكفاح والجهاد المسلح ضد العدو، حين خرج الأمير إلى الجهاد والكفاح في أنحاء الجزائر.

---

[210] المواقف: مجلد ١ الموقف ١٢٣ ص ٢٧.

[211] المواقف: مجلد ١ الموقف ١٧٣ ص ٣٨٤.

[212] المواقف: مجلد ١ الموقف ١٦٨ ص ٣٧٥.

[213] تنسب إلى الشيخ بهاد الدين محمد بن محمد البخاري المعروف بشاه نقشبند، ولد بالقرب من نجارى عام ٦١٨هـ وتوفي عام ٨٩١ هـ وهي طريقة ملتزمة بالكتاب والسنة، والبعد عن البدع والشطحات. انظر: أحمد توفيق عياد: التصوف الإسلامي: تاريخه ومدارسه. ص ٢٩٧. ٢٩٨.

[214] تنسب للشيخ عبد القادر الجيلاني (٤٧٠ – ٥٦١هـ) وتمتاز بالاعتدال واتباع السنة: التصوف الإسلامي تاريخه ص ٢٧٩ – ٢٨٣.

وكانت حروب الأمير عبد القادر ومرابطته في الثغور ضد الفرنسيين، هي المرحلة الثانية من مراحل تصوفه، واصطبغت هذه المرحلة بالفتوة والفروسية والمرابطة تلك الصفحات التي يتصف بها كبار الصوفية في مرحلة الجهاد ضد الأعداء، حين يقتضي الأمر ذلك في شرق العالم العربي الإسلامي، وغربه، وهذه كانت وظيفة أهل الثغور في المغرب العربي قديما وهم من أطلق عليهم" اسم المرابطين"[215].

وتأتي صفة الفتوة لأهل التصوف عامة وللأمير عبد القادر خاصة، لاتصافهم بصفات وأخلاق النبلاء، فهم لا يحملون السيف إلا لمقاومة الظلم والأعداء ودفع الاضطهاد وتحرير البلاد، مترفعين عن استعمال الغدر أو نقض العهد، وهي ميزات أساسية كان يتمتع بها أساتذة التصوف، وكذلك كان يتمتع بها الأمير عبد القادر طوال حياته وبشهادة أعدائه قبل أصدقائه.

وكذلك سمو معاملته للأسرى من "القواد وكبار الضباط، وحتى الجنود العاديين ما يشعر عن روح النبالة التي تعرف باسم الفتوة، وهي التي عرفت في الغرب باسم الفروسية"[216].

وقد امتاز اتجاه التصوف الذي اعتنقه الأمير بأنه تصوف أقرب إلى روح الشريعة الإسلامية وجوهرها، بل هو التصوف الثوري الصحيح الذي يدفع بالمسلم إلى معترك الحياة وإثرائها والضرب فيها بسهم وافر؛ حيث يجعل العبادة وعمل المعروف، والدعوة إلى الخير، ودفع الظلم والتكسب من الحلال والكدح في الأرض، عبادة يتصف القائمون بها بالفلاح كما في قوله تعالى: "ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون"[217] وفي ظل هذه العقيدة التي تجمع بين العبادة النظرية أي العلم، والعبادة العملية أي السلوك أو الجهاد بنوعية الأصغر والأكبر، يتقلد الأمير ذروة الفتوة والمرابطة بمعناهما الإنساني النبيل ويقول:

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا ... لعلمت أنك في العبادة تلعب
من كان يخضب خده بدموعه ... فنحورنا بدمائنا تتخضب
أو كان يتعب خيله في باطل ... فخيولنا وقت الصبيحة تتعب
ريح العبير لكم ونحن عبيرنا ... رهج السنابك والغبار الأطيب[218]

---

[215] وما زالت مدينة "الرباط" عاصمة المغرب تحمل الاسم حتى الآن.

[216] التصوف والأمير عبد القادر. جواد مرابط ص ٦٥.

[217] سورة آل عمران: الآية ١٠٤.

[218] الديوان: للأمير عبد القادر . ص ٩٦.

أما المرحلة الثالثة في تصوف الأمير، فمنذ كان أسيرا من فرنسا؛ حيث أتاح له الأسر فرصة كبيرة للخلو والعبادة، بعد أن ضاقت عليه الأرجاء، فظل متمسكًا بوقد الصبر، ووقدة الشوق للخلاص من الأسر، وتحويله من محنة إلى محنة، ككثير من الصوفية الذين يرون أن لابتلاء من ا امتحان وتمحيص واختبار للصوفي يمكن أن يصير منة إذا أحسن الصوفي استغلاله وتحمله بالصبر الجميل. وقد أشار الأمير إلى هذه المرحلة التي سماها "خلوة" في الموقف الحادي عشر بعد المائتين في كتابه "المواقف"، وصور حالته النفسية التعيسة وما كان يقاسيه من الضيق يقول: "دخلت مرة خلوة، فعندما دخلتها انكسرت نفسي، وضاقت على الأرجاء وفقدت قلبي، وإذا المعرفة نكرة، والأنس وحشة، والمطايبة مشاغبة، والمسامرة مناكرة، فكان نهاري ليلاً، وليلى ويحا وويلاً.. وأي قربة أردتها أبعدت بها، فلم يبق معي من أنواع الصلات إلا الصلاة، فكان هذا الابتلاء"[219].

وقد أتاحت هذه الخلوة له، فرصة للتأمل الصوفي والتفكير الهادئ العميق، فكان يقضي أوقاته مستغلا بالذكر والدعاء، وكانت ترد عليه "الواردات في الوقائع، مشيرة وآمرة وصابرة"[220] وكانت هذه المرحلة من التأسيس الصوفي هامة له حيث كانت إعداد المرحلة الأخيرة والتي سيصل فيها إلى ذروة التصوف، وامتازت بالإنتاج الأدبي والفكري والصوفي الغزير والعميق معا وتعرف في أثنائها بالصوفي الكبير السيد محمد الشاذلي القسنطيني وتلقى عنه مبادئ الطريقة الشاذلية وأصولها، وحقق بعض المساجلات الصوفية الشعرية معه.

وتعتبر المرحلة الرابعة والأخيرة من تصوف الأمير مرحلة خصبة وغنية بالتجربة الصوفية، فقد تعمق في هذه المرحلة في علوم القوم، وأظهر من دقائق الحقائق، وعوارف المعارف ما يؤذن بسمو مقامه، وعلو قدره؛ إذ كان "يصوم شهر رمضان على الكعك والزبيب، معتزلاً عن القريب والغريب. وله خلوة يتحنث بها في قصره بقرية أشرفيه صحنايا"[221].

وتمتاز هذه المرحلة بطولها الزمني حيث تستغرق من عمره ثلاثين عاما من فكاك أسره بفرنسا إلى أن استقر نهائيا في دمشق ببلاد الشام، وبعمقها الروحي، وبتحققه وتعمقه القلبي في كثير من المعارف والحقائق الصوفية، نتيجة اختلائه حول عامين بمكة والمدينة مقبلاً على العبادة والخلوة بعد التقائه بالشيخ الفاسي شيخ الطريقة الشاذلية ملازما للاجتهاد والرياضة القلبية، عاكفًا على الأذكار والأوراد، مرتقبا في معارج الأسرار الإلهية، يقول الأمير محمد ابنه في تحفة الزائر: "وما تم له الارتقاء إلا في غار حراء. لأنه انقطع فيه أياما عديدة، إلى أن جاءته البشرى، ووقع له الفتح الرباني،

---

[219] المواقف: مجلد المواقف ٢١١ ص ٤٧١.

[220] المواقف: مجلد ١ ص ٤٧٢.

[221] أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث: أحمد تيمور. ص ٣٦٤.

وانفتح له باب الواردات، واستظهر من القرآن العظـيم آيـات، ومـن الحـديث النبـوي، أحاديـث صحيحة"[222].

وقد أشار الأمير إلى هذا الفتح الرباني في المواقف الأول من مواقفه، موضحا حاله مع ا وهو حال، لا يكون إلا لكبار أساتذة التصوف الصادقين مع ا ، والموافقين بمنته وإلهامه، وهو حال يتفـق تماما مع التزام هؤلاء الصوفية بتعاليم القرآن الكريم والسنة الشريفة، فيقول: "إن ا تعالى قد عودني، أنه مهما أراد أن يأمرني، أو ينهاني، أو يبشرني، أو يحذرني، أو يعلمني علما، أو يفتيني فـي أمـر أستفتيه فيه، إلا ويأخذني مني مع بقاء الرسم، ثم يلقي إلى ما أراد بإشارة آية كريمة من القـرآن، ثـم يردني إلى، فارجع بالآية قرير العين،... وقد تلقيت والمنة تعالى، نحو النصف من القـرآن بهـذا الطريق"[223].

٣- مراحل الطريق الصوفي:

الطريق الصوفي طريق ديني قلبي وليس طريقًا فلسفيا عقليا، يعتمـد علـى رياضـة الـنفس ومجاهدتها، وتصفية الوجدان من الكدورات، والتخلي عن كل الرذائل ثـم التحلـي بكـل الفـضائل، للوصول إلى حالة الجذب، أو حالة الإشراق، وهي حالة معرفة ا عن طريق الذوق والمكاشفة، فـإذا وصل الصوفي إلى غايته كان دائم الحضور مع ا ودائم الشهود ، يدرك ا في كل شيء، ويسمعه في كل شيء، ويستطيع كل إنسان أن يصل على هذه المرتبة من السمو الروحي إذا استطاع أن يسلك طريقها. هذه الرحلة الروحية يسمونها "سلوكًا" والصوفي الذي يسعى إلى ا بهـذه الطريقـة يـسمي "سالكًا" والرحلة التي يقطعها الصوفي، هي "الطريق، وهي مراحل يعلو بعضها بعضا، مركبـة مـن أحوال ومقاومات، كلما قطع السالك بعضها تطلع إلى ما يعلوها من مقامات وأحـوال أخـرى، وهـو مدفوع برغبة شديدة نحو تذوق الإيمان بالوجدان، وعدم الوقوف عند حدود التصديق والإيمان التقليدي، الذي قد حصل عليه بالتوارث والتعلم من الأساتذة والأبوين، فتأخذه الرغبة الجارفة عن نفسه وتلقي به في بحار التصوف، حيث يعاني ويكابد التجربة بقلبه ووجدانه لا بعقله أو حسه، وتنتابـه أثنـاء ذلـك الأوهام والخيالات وأنواع من الحيرة، لا نجيه منها سوى مرشد بالطريق خبير، يسميه الصوفية بشيخ الطريق، يرشده إلى سواء السبيل، ويأخذ بيده في بيداء تلك الأحوال النفسية والروحية غير المألوفـة، حتى يصل به إلى مرحلة الوصول والإدراك العرفاني الصحيح. ولكن كل ذلك لا يكـون إلا بتحقيـق المجاهدات واستفراغ الطاقة في اجتياز كل مراحل الأحوال والمقاومات، لتتحقق مراحل الوصول إلـى العرفان والكشف الصوفي.

---

[222] تحفة الزائر: ص ٦٩٥.

[223] المواقف: مجلد ١ الموقف الأول. ص ٢٦.

المجاهدات الصوفية:

المجاهدات أو "الرياضة الروحية" هي سلوك الصوفي الذي يهدف إلى تطهير النفس وتخليصها من كدورات البدن وأدرانه، لكي تتبدل صفاتها، وتصبح أكثر استعدادا للاتصال بعالمها الروحي الذي تنتمي إليه، والذي منه انبعثت وإليه تعود[224].

والمجاهدة شرط أساسي من شروط السلوك في طريق التصوف، ولا يحصل للسالك شيء من نعمة الطريق إلا بالمجاهدة. والقرآن الكريم صريح العبارة في هذا الموضوع. قال تعالى: **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**[225]

والمجاهدة إما أن تكون ظاهرة بالجوارح، كالصوم والصمت والخلوة والعزلة. وإما أن تكون باطنه بالقلب لرياضة النفس وتظهيرها من صفاتها الشريرة[226].

ويرى "ابن خلدون" أن مجاهدات الصوفي في سلوكه لطريق الحق "على ثلاثة أنواع متفاوتة بعضها متقدم على بعض، وهي: مجاهدة التقوى، ومجاهدة الاستقامة، ومجاهد الكشف والاطلاع"[227].

أما مجاهدة التقوى: فهي وقوف المريد عند حدود الله، لأن الباعث على هذه المجاهدة "طلب النجاة فقط"[228] فكأنها اتقاء وتحرز بوقوف المريد عند حدود الله خوفًا من عقوبته، وتحصل هذه المجاهدة في الظاهر، عندما يتخلى المريد عن المخالفات، ويتوب عنها، أما في الباطن فتقوم على مراقبة أفعال القلب التي هي مصدر الأفعال[229].

وأما مجاهدة الاستقامة: فهي عبارة عن تقويم النفس، حتى تتهذب، فتحسن أخلاقها، وتصدر عنها أفعال الخير بسهولة، وتصير لها آداب القرآن والنبوة بالرياضة والتهذيب: خلقًا كأن النفس طبعت عليه. والباعث على هذه المجاهدة طلب الفوز بالدرجات العلى"[230].

وأما مجاهدة الكشف والاطلاع: فهي عبارة عن إخماد القوى البشرية، ونزع الصفات الدنية المذمومة، ثم محاذاة شطر الحق بالطريقة الربانية لينكشف الحجاب وتظهر أسرار العوالم، والعلوم واضحة للعيان، وهو العلم الإلهي الذي يحصل بالتصفية[231].

---

[224] التصوف في مجال المعرفة: مقال للدكتور أبو العلا عفيفي. مجلة المجلة: العدد ١٠٤ القاهرة ١٩٦٥.

[225] سورة العنكبوت : آية ٦٩.

[226] الصوفية في الإسلام: نيكلسون . ص ٤٤ ، ٤٥ ترجمة نور الدين شريبه.

[227] شفاء السائل لتهذيب المسائل. ابن خلدون. تحقيق وتعليق الأب غناطيوس عبده خليفة ص ٣٤، ٣٥ المطبعة الكاثوليكية، بيروت عام ١٩٥٩.

[228] شفاء السائل: ابن خلدون. ص ٥٧.

[229] شفاء السائل: ابن خلدون. ص ٣٤.

[230] شفاء السائل: ابن خلدون. ص ٣٤.

والباعث على هذه المجاهدة "طلب المعرفة برفع الحجاب والمشاهدة فـي الحيـاة الـدنيا"[232]. فالتصوف يطلق على أنواع المجاهدات الثلاثة هذه، إلا أنه أغلب استعماله فـي النـوعين الأخيـرين، واختص بهما علمه عند شيوخ الصوفيين، ومن اقتفى أثرهم، وهذا ما عبر عنه ابن خلدون بقولـه: "إن علم التصوف وهو العلم لشروط هاتين المجاهدتين (مجاهد الاستقامة ومجاهـدة الكـشف) وأحكامهـا وآدابها، ومصطلحات أهلها"[233].

وهذه المجاهدة الثالثة هي أعلى درجات المجاهدة، ففيها أصبح القلب الصوفي مـستعدا لقبـول اليقين، وهو يقين قلبي وليس يقينًا عقليا، وأصبح الصوفي ينظر بنور الله، نظرا قلبيـا ولـيس عقليـا، فيعرف من المعارف والحقائق، ما لا يعرفه من هم دونه، ممن لا يستقون معارفهم إلا من الكتب وفي هذا يقول "الغزالي" حجة الإسلام:

"فالكتب والتعليم لا تفي بذلك، بل الحكمة الخارجة عن الحصر والعد إنمـا تنفـتح بالمجاهـدة والمراقبة ومباشرة الأعمال الظاهرة والباطنة، والجلوس مع الله عز وجل في الخلوة مع حضور القلب بصافي الفكر والانقطاع إلى الله عما سواه، فذلك مفتاح الإلهام ومنبع الكشف"[234] ومن هنـا يختلـف الصوفية أهل الإلهام والمكاشفة عن العلماء والفلاسفة وأصحاب النظر، فأرباب البصائر "ما رأوا شيئًا إلا رأوا الله معه، وربما زاد على هذه بعضهم فقال: ما رأيت شيئًا إلا رأيت الله قبله. لأن مـنهم مـن يرى الأشياء به، ومنهم من يرى الأشياء، فيراه بالأشياء.. فالأول صاحب مشاهدة. والثـاني صـاحب الاستدلال عليه.. والأول درجته الصديقية والثاني درجته العلماء الراسخين"[235].

وهكذا نرى تأكيد الصوفية على أهمية العمل والمجاهدة، لا النظر، لأنه وسيلة القلب الوحيد إلى الصفاء، وتخليته وتحليته للمشاهدات القلبية والمعاينات الروحية، فلا سبيل للصوفي ليصل إلى غاياتـه المعرفية تعير جهاد أو رياضة نفس، وليس العقل هنا يجدي كوسيلة للمعرفة، وليس التعلم واكتـساب المعرفة هنا المنهج المناسب، ولذلك فقد أجمع الصوفية على أن "الطريـق تقـديم المجاهـدة، ومحـو الصفات المذمومة، وقطع العلائق كلها، والإقبال بكفة الهمة على الله تعالى، ومهما حصل ذلك، كان الله هو المتولي لقلب عبده والمتكفل له بتنويره بأنوار العلم، وإذا تولى الله أمر القلب، فاضت عليه الرحمة،

---

(231) شفاء السائل: ابن خلدون. ص ٥٧.

(232) شفاء السائل: ابن خلدون. ص ٤٨.

(233) شفاء السائل: ابن خلدون. ص ٥٧.

(234) إحياء علوم الدين: الغزالي جـ ١ ص ٧١.

(235) مشكاة الأنوار: الإمام الغزالي. ص ٦٣.

وأشرق النور في القلب، وانشرح الصدر وانكشف له سر الملكوت وانقشع عن وجه القلب حجاب الغرة بلطف الرحمة وتلألأت فيه حقائق الأمور الإلهية"[236].

وهذه المرحلة الأخيرة هي مرحلة الفناء الصوفي، وفيها يدرك الصوفي الحقائق مـا لا سـبيل للعقل الإنساني لإدراكه، ويتذوق من المعاني ما يكل اللسان عن شرحه.

فإذا أردنا معرفة مراحل المجاهدة عند الأمير عبد القادر الجزائري، على ضوء هذا التعريـف بالمجاهدة عند الصوفية عامة، فسنجد أنها نفس المراحل التي يمر بها كل الصوفية الملتزمين بالكتـاب والسنة، وإن كان الأمير يستخدم مصطلحات جديدة تتناسب مع العصر وتتواءم مع فلـسفته الـصوفية ومنهجه في التربية الروحية التي يختطها لنفسه، فهو يسمى المجاهـدة بالهـدى "إن الهـدي أنـواع، والموصوفون بالهدى أنواع: فمهتد وأهدي، وأعظم هدي "فالمهتدي الذي حصل على الهدايـة بالـدليل العقلي والبرهان. والأهدى هو الذي حصل على الهداية بتصديق الرسول والإيمان".

وأعظم هدي هو الذي حصلت له الهداية بالكشف والعيان"[237] وترتيب هذه المجاهـدات عـن الأمير من الأدنى إلى الأعلى: "فكل مرتبة من مراتب الهدي، هي ضلال بالنسبة إلى مـا هـو أعلـى منها. فهدي العقل ضلال بالنسبة إلى هدي المؤمن، بما جاء به الرسل، وهدي المؤمن بالرسل، ضلال بالنسبة إلى هدي أهل المشهود والعيان"[238] فتقابل مجاهدتي التقوى والاستقامة، عند الأميـر مرتبـة "الأهدى " أي مرتبة الإيمان الوسطى فهي سماء، وسقف للمهتدي، وأرض وقاعدة يرتقي منها صاحبها إلى سماء "الأعظم هدي" أي مرحلة الكشف والعيان.

فإذا أردنا تبين السبيل الذي جاهد الأمير وفقًا له بمرتبة "الأهدى" وجدناه يبدأ بالسير فـي خطـا الشرع، ملازما طريقة الشرع الظاهرية، ملتزما بالكتاب والسنة وفقًا لأسلوب الصوفية الصحيحة التي لا تحيد عن الشرع. ولا تجد النجاة إلا في الالتزام به، ورمي من وراء ذلك إلـى "القيـام بوظـائف التكاليف والعمل بما رسم الشرع"[239] معتبرا أنه "ليس الخير في الدنيا إلا ما أمر به الشارع، ولا أثر فيها إلا ما نهى عنه"[240] وهو يؤكد في كثير من مواقفه أن "أهل ا هؤلاء الذين تابعوا الاستقامة أشق على الكتاب والسنة"[241] وإن "اتباع قول وعلم وحال أعظم جهادا للنفس، فلا أشق على النفس وأتعـب

---

[236] المنقذ من الضلال: الغزالي. ص ...

[237] المواقف: الأمير عبد القادر . مجلد ١ الموقف ١١٨ ص ٢٥٧، ٢٥٨.

[238] المواقف: الأمير عبد القادر. مجلد ١ الموقف ١١٨ ص ٢٥٨.

[239] المواقف: للأمير عبد القادر. مجلد ١ الموقف ١٧٧. ص ٣٩٥.

[240] المواقف: للأمير عبد القادر. مجلد ١ الموقف ١٧٧. ص ٣٩٥.

[241] المواقف: للأمير عبد القادر. مجلد ٢ الموقف ٢٤٨. ص ٦٧٨.

لها من امتثال الأوامر ظاهرا وباطنًا، واجتناب النواهي كذلك، ومخالفتها عند طلب الشهوات غير الضرورية"[242].

ومن هنا يعبر الأمير عن بداية المجاهدة بقوله: "ومن بعض نعم الله علي: أنني منذ رحمني الله تعالى – بمعرفة نفسي، ما كان الخطاب لي والإلقاء علي، إلا بالقرآن الكريم العظيم"[243].

وذاك أن الأمير طلب من الحق أن يجعل له نورا يكشف له عما هو مأمور بعمله، وعما هو مأمور بتركه، فأجابه الحق في الحين" ها هو ذا في الكتاب والسنة"[244] فعرف الأمير عندها "أنه لا نور يرغب فيه الراغبون مثل الاستقامة على الكتاب والسنة"[245] فهو في مجاهدته هذه لا يعبر إلا عما فهمه الله "في كتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم – بالتفهم الرباني"[246].

٤- الأحوال والمقامات

تعتبر المقامات والأحوال هي الدرجات والرتب التي يترقى فيها السالك، بعد أن يكون قد سار شوطًا طويلاً في مجاهدة نفسه ورياضتها، وتحلى بكل من الآداب العامة والخاصة، وتخلص من كل شوائب الرذائل، وأمراضها، وتحلي بكثير من الفضائل وتمرس بها، وحقق مزيدا من الانسجام بين قواه وملكاته، وأصبح قريبا في حالاته النفسية مما نسميه "الطمأنينة" أو السوية أي تخلص من التناقضات والصراعات الداخلية، وأصبح صفاء كله أو يكاد، وسيطرت على وجدانه ومزاجه النفسي حالات الطمأنينة والسكينة.

عندئذ يصبح أهلاً لتوارد الأحوال الإلهية عليه، ويأخذ في الترقي من مقام إلى آخر وفقًا لما يرسخ فيه ويثبت من أحوال نتيجة مجاهداته ورياضاته المختلفة، ولا يترقى من مقام إلى آخر حتى يستوفى المقام الذي هو فيه حقه وآدابه، فهذه المقامات هي مظاهر ما يتحقق به السالك من استقرار نفسي حال سلوكه.

لذلك يرى الصوفية أن السالك لا يمكن أن يتحقق من مقام من المقامات إلا إذا كان مشتغلاً بالرياضة له والمجاهدة من أجل تحقيق شروطه الخاصة. فلكل مقام شروط وأركان لا بد من الوفاء بها ليفوز به الصوفي، ولذلك فالمقام كسبي أي درجة من السلوك يمكن اكتسابها بالجهد والعمل والرياضة، ومن هنا يقول "القشيري": "المقام ما يتحقق به العبد بمنازلته من الآداب مما يتوصل إليه بنوع تصرف،

---

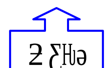
[242] المواقف: للأمير عبد القادر. مجلد ١ الموقف ٠٧١ ص ١٤٢.

[243] المواقف: للأمير عبد القادر. مجلد ١ الموقف ٨٣. ص ١٥٩.

[244] المواقف: للأمير عبد القادر. مجلد ١ الموقف ٢٠. ص ٦٠.

[245] المواقف: للأمير عبد القادر. مجلد ٦٢١.

[246] المواقف: للأمير عبد القادر. مجلد ١ الموقف ٢٠٩. ص ٤٥٩.



ويتحقق به بضرب تطلب ومقاسات تكلف فمقام كل واحد موضع إقامته عند ذلك، ومـا هـو مـشتغل بالرياضة له"[247].

وصحيح ما ذهب إليه أستاذنا الدكتور العراقي[248] من أن الكسب هنا، كسب عملي تطبيقـي لا يدخل في المجال العقلي من قريب أو من بعيد، فمعناه أن مقام العبد بين يدي ا عز وجل فيما يقام فيه من العبادات والمجاهدات وبالرياضات والانقطاع إلى ا عز وجل، كما يذهب إليـه الطوسـي فـي "اللمع".

أما "الأحوال" فهي ما يرد على قلب السالك، دون كسب منه، وفيها يقول القشيري أيضا: "معنى يرد على القلب من غير تعمد منهم ولا اجتلاب، ولا اكتساب لهم من طرب. أو حزن أو بسط أو قبض أو شوق وانزعاج أو هيبة"[249].

ويحلل السراج الطوسي الأحوال فيقول: "معنى الأحوال"، ما يحل بالقلوب أو تحلى به القلـوب من صفاء الأذكار وليس الحال عن طريق المجاهدات، والعبادات والرياضيات كالمقامات. [250] وكذلك يفرق الغزالي بين المقام والحال من ناحية أخرى فيقول:

"يسمي الوصف مقاما إذا ثبت وأقام، وإنما يسمي حالاً إذا كان عارضا سريع الزوال وهكذا كل صفات القلب تنقسم هذه الأقسام، فالذي هو غير ثابت يسمى حالاً، لأنه يحول على القرب، وهذا جـاء في كل وصف من أوصاف القلب"[251].

ويتفق القشيري مع الغزالي في ذلك فيقول في هذا المعنى: "فالأحوال مواهب والمقامات مكاسب والأحوال تأتي من غير الوجود، والمقامات تحصل ببذل المجهود، وصاحب المقام ممكن في مقامـه، وصاحب الحال مترقٍ عن حاله"[252].

وفي الحقيقة فالأحوال والمقامات، وإن دلتنا على شيء، فإنما تدلنا كيف أن مبتداها ومنتهاها إنما يتمثل في الجانب العملي الوجداني القلبي، وهذا الجانب لا علاقة له بالبرهان بمعنـاه الفلـسفي فهـي جوانب عملية، كما يذهب إلى ذلك أستاذنا الدكتور عاطف العراقي لا تتفق مع شروط المعرفة العقلية، التي يهتم بها العقليون، إلا أن لها يقينًا قلبيا هو الذي يعني به الصوفية. ويحومون حوله.

---

[247] الرسالة القشيرية: القشيري. ص ٣٤.

[248] ثورة العقل في الفلسفة العربية: د عاطف العراقي. ص ١٤٠ الطبعة الثالثة عام ١٩٧٦.

[249] الرسالة القشيرية: القشيري. ص ٣٤.

[250] اللمع: السراج الطوسي. ص ٦٦.

[251] إحياء علوم الدين: الغزالي. جـ ٤ ص ١٣٩.

[252] الرسالة: القشيري. ص ٣٤.

والمقامات والأحوال عن شيوخ التصوف متداخلة[253]، وما يعده بعضهم من المقامات، قد يعـده بعضهم الآخر من الأحوال فالطوسي مثلاً قد جعل المقامات سبعة في "اللمع" كل واحد منها ثمرة للمقام الذي يتقدمه وهي على الترتيب: التوبة، فالورع، فالزهد، فالفقر، فالصبر فالتوكل، فالرضا. وأبو طالب المكي" قد جعل في كتابه "قوت القلوب" المقامات تسعة هي: التوبة، والـصبر، والـشكر، والرجـاء، والخوف، والزهد، والتوكل، والرضا، والمحبة.

والغزالي يبلغ بها في "الإحياء" عشرة مقامات أعلاه المحبة.

وكانت الأحوال عنده هي: الأنسي، والشوق، والحياء والانبساط والإدلال، والفناء والبقاء.

فإذا استعرضنا المقامات والأحوال عند الأمير عبد القادر، أو طريق الحق كما يسميه، فـسنجد أنه يبدأ بالهجرة، التي تمثل له الأساس الأول يقول: ": الهجرة إلى ا قلبية، وهـي الأسـاس الأول، والأمر الذي عليه المعول، وهي بحصول الزاجر الإلهي، والعزوف عما كان عليـه مـن المخالفـات للأوامر الإلهية"[254].

وقد يتوهم متوهم أن السالك سائر إلى ا في مسافة محسوسة، وأن الوصول إلى ا وصـول محسوس، ومن هنا، لا يصح إطلاق السير إلى ا تعالى – إلا بنوع من المجاز فإذا استطاع الـسالك، السائر في ميادين النفوس، قطع تلك العقبات المعنوية، يصل إلى العلم با تعالى – فيصبح أن يقـال: سار إلى ا :"[255].

إذًا، ليس هناك من شيء محسوس يسير فيه السالك حتى يقطعه، وإنما هو سـير معنـوي فـي مجالات معنوية، وهي النفوس التي يكون سير السالك فيها وقطعها: كناية عن تبديل صفاتها البهيميـة بالصفات الإلهية"[256].

وقد اعتبر الأمير أن النفس مطية السالك في سيره إلى ا تعالى؛ إذ إنه "لولا وجود النفس مـا سار سائر إلى حضرة الحق ولا وصل إليها، فهي الحجاب على البعد، وهي موصلة إلى ربه، ووسيلته إليه[257] فالسفر الروحي لا يكون إلا بمفارقة النفس الأمارة بالسوء، ومزايلة الإيمان العلي. يقول فـي ذاك الأمير:

ففارق وجود النفس تظفر بالمنا   وزايل ضلال العقل إذ إنه الحبس[258]

---

[253] عوارف المعارف: شهاب الدين السهروردي. ص ٢٨١، ٢٨٧ بهامش الأحياء جـ ٤.

[254] المواقف : مجلد ١ الموقف ١٨٥ ص ٤٠٧.

[255] المواقف: للأمير عبد القادر. مجلد ١. ٧١.

[256] المواقف: للأمير عبد القادر. مجلد ١ الموقف ٢٥. ص ٧٠.

[257] المواقف: للأمير عبد القادر. مجلد ١ الموقف ٦٩. ص ٣٩.

[258] المواقف: للأمير عبد القادر. مجلد ١ المقدمة ص ١٤.

وما دام الناس متفاوتين في إدراكهم لأنفسهم، فإنهم متفاوتون في معرفتهم لربهم، بمـا لا يكـاد ينحصر، ولا يدخل تحت قياس "ففي كل نوع من أنواع الهدى، أشخاص لا يكـادون ينحـصرون إلا للخالق – تعالى – فناقص، وكامل وأكمل، وما بين ذلك"[259].

ثم يتحدث الأمير عن الأحوال والمقامات، وهو لا يهتم بتصنيفها وتبويبها والحديث عنها حـديثًا نظريا فلسفيا كما يتحدث المؤرخون والمصنفون، ولكنه يتحدث عن الأحوال والمقامات التـي خبرهـا بنفسه، وعاشها وعانى من تجربته معها، معاناة المجرب، ومارسها في حياته تطبيقًا عمليا، أكثر منـه قولاً نظريا.

وقد مارس الأمير كثيرا من المقامات والأحوال، خلال سيرة حياته الذاتية، فكل موقف وحـدث من مواقف حياته هو سلوك على طريق الوصول إلى الحق، فمعاملته الإنسانية النبيلة للأسرى وحروبه الشريفة مع العدو تعبر عن فتوته ومرابطته، وأسره في فرنسا، وصبره على المحن والشدائد في الأسر تعبر عن مقامي الصبر والتوكل، وكثيرة هي المقامات التي حققها الأمير في حياته وتحدث عنها فـي مؤلفاته وأشعاره.

وهو يعتبر مقام "التوبة الذي يبدأ به الصوفي سلوكه هو" الأساس لـسلوك الطريـق والمفتـاح للوصول لمقام التحقيق، فمن أعطاه أعطى الوصول – ومن حرمه حرم الوصول"[260].

ويرى الأمير أن مقام "التوكل" هو الثقة والطمأنينة، لا ترك الأسباب، مع الشك والاضـطراب، فليس هذا من التوكل المطلوب في شيء"[261] بل هو تواكل إذا "لو كان ترك السبب والحركة تـوكلاً للزم إذا وضع الخزر بين يدي هذا المتوكل أن لا يتناوله إلى فيه، فإن هذا سبب وحركة لوصول الخبز إلى بطنه"[262].

والأمير في هذا يتطابق مع المعنى الحقيقي للحديث الشريف الذي يطالب فيه النبـي صـلى ا عليه وسلم من المؤمن أن يعقلها ثم يتوكل، فعليه الأخذ بالأسباب بأقصى قدر مستطاع، ثم يترك النتائج على ا تعالى.

وقد اختلف الناس في مفهومهم لارتباط التوكل بالسبب، وهم كما يرى الأمير على ثلاثة أقـسام. متسبب صرف نظره مقصورا على السبب وقوته وضعفه فهو أعمى:

---

[259] المواقف: للأمير عبد القادر. مجلد ١ الموقف ١١٨. ص ٢٥٩.
[260] المواقف: للأمير عبد القادر. مجلد ١ الموقف ١٩٧. ص ٤٣٠.
[261] المواقف: للأمير عبد القادر. مجلد ١ الموقف ١٦٥. ص ٣٦٩.
[262] المواقف: للأمير عبد القادر. مجلد ١ ٣٦٩.

ومتوكل صرف معرض عن الأسباب ظاهرا وباطنًا، وهو صاحب حال لا يقتدي به، ولا يحتج عليه ومتسبب بظاهرة، متوكل بباطنه، يد في السبب، وقلبه متعلق بخالق السبب، ظاهر لظاهر وباطن لباطن، وهذه هو الكامل الناظر بعينين"[263].

فتوكل الأمير هنا هو مقام المتسبب ظاهريا، والمتوكل باطنيا؛ أي إن يكون ظاهره يوحي بتعلقه بالأسباب، وباطنه القلبي بخالق الأسباب ورب الأسباب،

وهذا قريب مما يراه الغزالي في أحيائه؛ حيث يرى أن التوكل لا يتعارض مع التدبير والسعي والكسب فيقول:

"وقد يظن أن معنى التوكل ترك الكسب بالبدن وترك التدبير بالقلب والسقوط على الأرض كالخرقة الملقاة، وكاللحم على الوضم، وهذا ظن الجهال فإن ذلك حرام في الشرع، فالشرع قد أثنى على المتوكلين، فكيف ينال مقام من مقام من مقامات الدين بمحظورات الدين.. إنما يظهرنا تأثير التوكل في حركة العبد وسعيه بعلمه إلى مقاصده، فالتباعد عن الأسباب كلها مراغمة للحكمة وجهل بسنة الله تعالى، والعمل بموجب سنة الله تعالى مع الإكمال على الله دون الأسباب لا يناقض التوكل"[264] ومن هنا فقد ذهب الأمير عبد القادر إلى إثبات الأسباب من "حيث أثبتها الحق – تعالى – امتثالاً للأوامر واتباعا للحكمة، ولا تعتمد عليها من حيث أنها أغيار للحق تعالى، وشاهد وجه الحق فيها، فلا بد من الأسباب وجودا والغيبة عنها شهودا"[265].

وعلى ضوء هذا الفهم المقام المتوكل يمكننا فهم أنواع الجهاد والكفاح التي اضطلع بها الأمير سواء في مرحلة السيف والقتال أو في مرحلة القلم والتعليم، من حيث إن التصوف ليس تواكلاً وتكاسلاً وتخاذلاً، كما ساد في عصور الجهل والظلام المتأخرة، بل هو فترة ومرابطة وجهاد في سبيل الله حتى نهاية الحياة البشرية.

فإذا أحكم السالك عدة مقامات، فكان مخلصا في توبته وصادقًا في توكله ومنيبا في خوفه ورجائه، تبدأ ترد على قلبه المشاهدات القلبية والتجليات الروحية، ويترقى في معارج الروح عن طريق "الحال" والوجد ويصبح الذوق هو طريقه في اكتساب معارفه الروحية والإلهامات هي ما يتوارد عليه شهودا وتجليا من قبل الله تعالى.

---

[263] المواقف: للأمير عبد القادر. مجلد ١ الموقف ٧٧. ص ١٥١.

[264] الإحياء: الغزالي جـ ٤ ص ٢٥٨، ٢٥٩.

[265] المواقف: للأمير عبد القادر. مجلد ٢ الموقف ٢٥١. ص ٧٦١.

وليس على الصوفي هنا سوى أن يتعلم كيف يغني عن وجوده الحي المحدود، لينطلق بوجوده الروحي اللامحدود نحو ذلك المطلق الفاتح له أحضان الأبدية والمعد له بوشائج العناية والرعاية الإلهية.

فتتوارد على الصوفي كثير من الأحوال كالبسط والقبض والهيبة والمحبة والشوق وهي أحوال – كما ذكرنا – لا حول فيها لإرادة السالك، وإنما هي واردات إلهية ومنح ربانية ترد على قلب المسالك دون اجتلاب أو اكتساب منه.

فإذا استعرضنا أهم الأحوال الروحية عند الأمير، والتي يكثر من حديثه عنها في مؤلفاته الصوفية، فسنجد أن هذه الأحوال ثلاثة:

أولها: حال القرب: "والقرب من الحق – تعالى – قرب معنوي"[266] حتى لا يظن وأهم أن الصوفي يقترب بذاته من ذات ا تعالى، وهو نوع من التوحيد الرفيع، يكون بالتخلص من كل الحجب البشرية، وتحقق كامل بالوحدة المطلقة Monism في ذرا المشاهدة والتأمل، وهذا يعني اتحاد المرء مع ا ، اتحاد عيان لا اتحاد أعيان[267] بعد فنائه عن الكيان المعنوي والأكوان، ويؤكد الأمير هذا المعنى بأن هذا لا يتم "إلا برفع حجاب الجهل، فما بعدنا إلا الجهل، ولا قربنا إلا العلم"[268].

ومن هنا فالتوحيد عند الأمير توحيد شهودي، وليس توحيدا وجوديا؛ أي لا يصبح العارف هو المعروف، ولا يكون الموحد عين الوحدة المطلقة، وهذا ما يسمى بوحدة الوجود "التي يصبح فيها الخالق والمخلوق شيئًا واحدا، والخلق والحق وجهين لحقيقة واحدة، وإنما التوحيد عنده، والذي يتحقق في حال القرب "توحيد شهودي" أي إفراد القدم عن الحدوث ذوقًا، والإعراض عن الحادث، والإقبال على القديم.

ولذلك يصف الأمير الصوفية أو العارفون أو أهل ا بأنهم "القريبون من ا تعالى، القرب المعنوي، والمقربون عنده.. الملبون دعوته، المستجيبون إلى طاعته.. الداعون إلى معرفته وتوحيده على طريق الصوفية، أهل الحقيقة والسلوك والأحوال.. وقطع عقبات النفوس وطي المقامات إلى الذروة العليا"[269]

---

[266] المواقف: للأمير عبد القادر. مجلد ٢ الموقف ٢٧٨. ص ٨٤٣.

[267] أي اتحاد مشاهدة وتجلي وليس اتحاد وجود.

[268] المواقف: للأمير عبد القادر، مجلد ١ الموقف ١٥٩. ص ٣٥٨.

[269] المواقف: للأمير عبد القادر. مجلد ١ الموقف ١٣٦. ص ٣٠٢. ٣٠٣.

والقرب عند الأمير قربان:

١- قرب النوافل: وهو أن يشهد العابد نفسه حال العبادة. بل وفي غيرهـا مـن سـائر الأفعـال والإدراكات، أنه بالله، أي أنه يشهد الحق – تعالى – قدرته وسمعه وبـصره، وجميـع قـواه وأعضاءه الظاهرة والباطنة، فلا يرى فعلاً له ولا لغيره ولا إدراكًا إلا بالله ... وهـذا المقـام يسمى بقرب النوافل، ثابت ذوقًا ووجدانا"[270].

والذي يميز هذا اللون الخاص من التوحيد أو القرب، كما يقول أحـد البـاحثين[271] " يخضع لها العبد وتتلاشى إرادته فيها، بل تتجلى لصاحب التوحيد الشهودي في صورة يخضع كلها العبد وتتلاشى إدارته فيها، بل تتجلى لصاحب التوحيد الشهودي في صورة "ذات مقدسة" يهين في جمالها، ويتعشق كمالها ويفني في وجودها. وهناك نوع آخر من القرب هو:

٢- قرب الفرائض: وهو مستوى من القرب أعلى من النوع السابق" وفي هذا المقام يشهد العابـد نفسه وقواه الباطنة وأعضاءه الظاهرة، آلة الحق – والحق – تعالى – المصرف لها، المـؤثر بها فيسمع بسمع العبد، ويبصر ببصره، ويتكلم بلسانه، إلى آخر الإدراكات"[272].

ويشبه القرب الأول قرب المأخوذ عن نفسه أو المجذوب، الذي لا يشعر بما له ولا يدرك أخذه، ويشبه القرب الثاني قرب الواصل الممكن في حاله المدرك يجري عليه من تصريف إلهـي وتجليـات ربانية، ومن الطبيعي "أن من كان قربه قرب النوافل فهو قريب، ومن كان قرب قرب الفرائض فهـو أقرب"[273].

وهذا الحال الذي يتحدث عنه الأمير من القرب بين العبد السالك وربه، هو تحقيق لما قاله النبي – صلى الله عليه وسلم – مخبرا عن الحق سبحانه، بأنه ما تقرب إلي المتقربين بمثل أداء ما افترضت عليهم. ولا يزال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى يحبني وأحبه. فإذا أحببته كنت له سمعا وبصرا. فبـي يبصر وبي يسمع"[274]. ولا يعني هذا أي وصول السالك إلى حال القرب، أن يتوقف بـه الطريـق أو ينتهي فيه إلى حد محدود، فهذا المنهج الصوفي لا نهاية له، بل هو منهج وطريق مفتوح، غير متناهي الدرجات، والسالك فيه دائما مترق عن حاله إلى أحوال أخرى تعلوه وتسمو فوقه، ومن هنا كلما تدانت بين الأمير، وبين المحبوب، كما يقول الأمير، زاده هذا القرب أشجانًا وأحزانًا. فلا القرب يـشفي، ولا

---

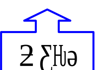
(270) المواقف: للأمير عبد القادر. مجلد ١ ٣٠٣.

(271) د. عثمان يحيى: مقال نصوص تاريخية بالكتاب التذكاري لمحي الدين بن عربي. ص ٢٣٥، القاهرة عام ١٩٦٩.

(272) المواقف: للأمير عبد القادر. مجلد ١ ٣٠٣.

(273) المواقف: للأمير عبد القادر. جـ ٢ الموقف ٢٨٤. ص ٨٦٩.

(274) انظر شرح هذا الحديث: الرسالة القشيرية. ص ٤٢ والتعرف: للكلاباذي. ص ١٢٧ – ١٢٩.



البعد ينسي. وكلما ازداد قربا من المحبوب الأول، زاده هذا القرب عطشًا إلى المعرفة الإلهية ولـذلك يصرخ الأمير في حال وجده قائلاً:

وإن قلـت يومـا قـد تـدانت ديارنـا	**لأسـلو عـنهم، زادنـي القـرب أشـجانا**
فما القرب لي شـاف ولا البعـد نـافع	**وفي قربنـا عـشق، دعـاني هيمانـا**[275]

ثانيا: حال المحبة: تعتبر المحبة عند الصوفية حالاً من الأحوال التي تمنح للمرء وتوهب له من الله، وهو في سلوكه. ذلك أن الصوفي بغير المحبة ما كان يسعى إلى شق طريق التـصوف واجتيـاز عقباته، فالمقامات التي يتخطاها السالك درجة فدرجة لا يمكن أن يعبرها السالك أو المريد إلا إذا كـان الله قد منحه حال المحبة، فالمحبة هنا فضلاً عن أنها مكافأة للصوفي من عند الله، فإنها تعد أيضا باعثًا له على أن يتحرك نحو المحبوب وباعثًا له على أن ينفض عن نفسه شوائب العالم المادي فإذا تـساءلنا عن معنى محبة الله تعالى للعبد أو محبة العبد لله فسنجد الإمام القشيري يرى أن المحبة تعنـي الإرادة" فمحبة الله للعبد تعني أنه سبحانه أراد أن ينعم عليه. ويفسر القشيري معنى الإرادة هنا، فيبين أن لهـا أكثر من معنى بحسب استخدامنا لها. فإذا تعلقت إرادة الله بالعقاب، كانت حينئذ غضبا منه سبحانه على العبد.

وإذا تعلقت إرادة الله سبحانه بمنحه نعما كثيرة، فإنها تسمى حينئـذ رحمـة. أمـا إذا تعلقـت بتخصيص بعض هذه النعم لفريق من الناس وهم الصوفية هنا فإنها تسمى حينئذ محبة[276].

والمحبة عند الصوفية "حال" يجده المرء في قلبه دون أن يستطيع التعبير عـن هـذا الحـال أو الإفصاح عنه أو نقله إلى الغير، فالمحبة لا يعبر عنها وإنما تترجم من خلال الأفعال التي يقـوم بهـا الصوفي من تعظيم لله وإيثار له على كل ما عداه والسعي إلى نيل رضاه[277].

وقد وردت للصوفية كثير من التعريفات للمحبة، فقيل في حدها إنها "غليان القلب وثورانه عنـد العطش والاهتياج إلى لقاء المحبوب" وقيل أيضا: المحبة هي الميل الدائم بالقلب الهائم وقيل إنها إيثـار المحبوب على جميع المصحوب. وقيل: إنها موافقة الحبيب في المشهد المغيب"[278] وقد مـلأ الأميـر عبد القادر الصوفي قلبه معرفة بالله، وهياما بمحبته، هذه المحبة التي عرف حـلاوة مـذاقها ونعمـة عطائها، فلا يستطيع أن يسلوها، وأن يبتعد عنها، هي محبة ملكت عليه قلبه، فأشعلت فيه نار الـشوق، الشوق لمعرفة الحبيب وازدياد الشوق والمحبة له. وفي هذا الحال يقول الأمير.

---

[275] الديوان: للأمير عبد القادر. ص ٢٢٢.

[276] الرسالة القشيرية: للإمام القشيري.

[277] التصوف الإسلامي: د. فيصل بدير عون. ص ١٢٥. القاهرة عام ١٩٨٣.

[278] الرسالة القشيرية: القشيري. ص ١٤٤.

عن الحب مالي كلمـا رمـت سـلوانا	**أرى حشو أحشائي مـن الـشوق نيرانـا؟**
لــواعج لــو أن البحــار جميعهــا	**صـبين لكـان الحـر أضـعاف مـا كانـا**
فلـو أن مـاء الأرض طـرا شـربته	**لمــا نــالني ري ولا زالــت ظمآنــا**[279]

والمحبة عند الأمير درجات ومراتب، وأعلى مراتبها محبة ا للمجاهدين، الذين جاهدوا الجهاد الظاهر، والجهاد الباطن في سبيل معرفة الحبيب الأول. يقول الأمير في المواقف:

"فأي منقبة أعظم ومكرمة أفخم من محبة ا – تعالى – للمجاهد، وهي محبة خاصة بالمجاهدين لها آثار في الدنيا والآخرة، كما أن محبة المجاهدين له – تعالى – محبة خاصة زائـدة علـى محبـة المؤمن غير المجاهد لظهور آثار المحبة من الجانبين"[280].

وتشبه المحبة عند الأمير النوع الثاني من أنواع المحبة التي أشار إليها الطوسي في كتابه "اللمع" وهو الذي يتولد من نظر القلب إلى غناء ا وجلاله وعظمته وعلمه وقدرته. وهذا النوع من المحبـة هو حب الصادقين والمتحققين.

أما عن شروط هذا النوع، فهي هتك الأستار وكشف الأسرار، وهـي أيـضا محـو الإرادات واحتراق جميع الصفات والحاجات[281].

ويعجب الأمير عبد القادر من صبر هؤلاء المحبين على أسرار المحبة الإلهية التـي أؤتمنـوا عليها، فحاول أن يكتم هذا الهوى، ولكن أني له ما أراد لأن الهوى فضاح، وتظهر علامات المحبة عند المحب:

لو كنت أعجب مـن شـيء لأعجبنـي	**صـبر المحبـين مـا نـاحوا ولا بـاحوا**
أريـد كـتم الهـوى حينـا فيمنعنـي	**تهتكــي كيــف لا والحــب فــضاح**[282]

كما يعبر عن موقفه من العشق الإلهي، بأن يحزن ويأسى لأهل هذا العشيق لأن حظهم الهـلاك سواء كتموا محبتهم أو صرحوا بها.

ويــح أهــل العــشق هــذا حظهــم	**هلكــى! مهمــا كتمــوا أو صــرحوا**[283]

---

[279] الديوان. للأمير عبد القادر. ص ٢٢١.

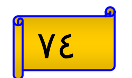
[280] المواقف: للأمير عبد القادر. مجلد ٣ الموقف ٣٢٤ ص ١٠٤٨.

[281] نقلاً عن الدكتور محمد عاطف العراقي: ثورة العقل في الفلسفة العربية. ص ١٤٤ الطبعة الثالثة سنة ١٩٧٦.

[282] الديوان: ص ٢١٧، ص ٢١٨.

[283] الديوان: ص ٢٢٤.





وحين يبلغ السالك هذا المستوى من المحبة والعشق الإلهي، يستوي عنده "شهيد المعترك وشهيد المحبة اللذان يستتر عنهما الوجود المجازي والحياة الغانية، ويحصلان على الوجود الحقيـق والحيـاة الباقية، بخلاف غيرهما من الأموات"[284].

ثالثًا: حال المشاهدة: وهذه حال شريفة لا يتحقق بها إلا من يقومـون بالمجاهـدات الـصوفية فيتحقق لهم نوع من اليقين بطريق الذوق والوجدان، وهو مراتب ومستويات، فمنهم من يجد ا بطريق الأفعال، وهو رتبة في التجلي، فيغني فعله وفعل غيره لوقوفه مع فعل ا . ومنهم من يوقف في مقـام الهيبة والأنس بما يكاشف قلبه به من مطالعة الجمال والجلال وهذا تجلي بطريق الصفات، وهو رتبـة في الوصول. ومنهم من ترقى لمقام الغناء مشتملاً على باطنه أنوار اليقين والمشاهدة، مغيبا في شهووده عن وجوده، وهذا ضرب من تجلي الذات لخواص المقربين"[285].

وهذا الحال من المشاهد قد حققه الأمير، بعد أن مارس فنون المجاهدة، وما كان ليطمـئن إلـى صدق إيمانه ولا بتحقيقه لهذا الحال، فالمشاهدة هي تحقيق الإيمان بالمعاينة وهي ما عناه الغزالي فـي مؤلفاته الصوفية "بعين اليقين" الذي يرتفع مستواه فوق درجة الإيمان الذي هو "علم اليقين". فالمشاهدة، هي درجة عبادة ا بالإحسان، ولذاك لا يطمئن الأمير "الاطمئنان الكامل إلا بالشهود"[286] وهذه الحالة هي النوع الثالث من أنواع الهدى، التي أطلق عليها اسم "الأعظم هدى"[287]. بحيث لا ينال هذه المرتبة إلا الذي حصلت له الهداية بالكشف والعيان"[288].

وقد عبر الأمير حين وصل إلى حال المشاهدة عنه بالوصال، هذا الوصال الذي اعتبره عيـدا وأفراحا لأنه بمنزلة الروح والراح يقول:

أوقـــات وصـــلكم عيـــد وأفـــراح — يا من هم الـروح لـي والـروح والـراح
يا مـن إذا اكتحلـت عينـي بطلعـتهم — وحققت فـي محيـا الحـسن ترتـاح[289]

وهذا الوصال يحقق لصوفينا لذة النظر، فلم ينظر الأمير إلى شيء في هذا الوجود إلا وقد لاح منه أحباب قلبه، فصورة محبوبه مبثوثة في كل الكائنات، ومن هنا يقول:

فمـا نظـرت إلـى شـيء بـدا أبـدا — إلا وأحبـــاب قلبـــي دونـــه لا حـــوا.

---

[284] المواقف: المجلد ١ الموقف ١٨٦ ص ٤٠٩.

[285] عوارف المعارف: بهامش الإحياء: السهروردي . جـ ٤ ص ٤٣١.

[286] المواقف: المجلد ١ الموقف ١١٨ ص ٢٥٨.

[287] المواقف: المجلد ١ ص ٢٥٨.

[288] المواقف: المجلد ١. ص ٢٥٨.

[289] الديوان ك ص ٢١٦.

وقبل أن ننتقل إلى "علم المكاشفة" الذي يهتم به الصوفية عامة والأمير عبد القادر خاصة لا بـد وأن نتعرض لموضوع "الرمز" في التصوف، من حيث إنه وسيلة الصوفية للتعبيـر عـن مواجيـدهم وأحوالهم التي لا يمكن التعبير عنها باللغة العادية، خاصة وأن موضوعهم الذي يعبرون عنه، ليس من هذا العالم المادي الذي تعبر عنه اللغة الطبيعية.

٥- الرمز والمصطلح الصوفي

إذا تساءلنا عن الكيفية التي ينقل بها الصوفية تجربتهم إلى غيرهم، فسنجد أن اللغـة الوضـعية التي تستخدم في مختلف العلوم والمعارف لا تفي بالمطلوب، فحين يختص الأمر بالتعبير عن حقـائق التصوف وما يعانيه الصوفي في مشاهدته ومعاينته للحقائق الروحية، فإن اللغة المألوفة تعجز عن هذا التعبير، ذلك أن اللغة مصبوبة في قوالب العقل والمنطق، والصوفي بالـضرورة يعـيش فـي العـالم المكاني الزماني؛ حيث قوانين المنطق، ولما كانت تجربته تنتمي إلى عالم آخر هو عـالم الواحـد لا الكثير، فهو حين ينتهي في تجربته، ويريد أن ينقل مضمونها وفحواها إلى الغير، من خـلال عمليـة تذكر لها، فإنه يقع في كثير من التناقضات والمغالطات ولذلك نجد أحد هؤلاء الـصوفية[290] بعـد أن يعيش التجربة الصوفية كاملة، يصرح في أهم مؤلفاته، بأن تجربته مما لا يمكن التعبير عنها، وكـذلك يفعل كثير من الصوفية.

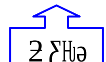
ونظرا لأن الأحوال المعرفية الصوفية التي يتم فيها الكشف للحقائق المفارقة، خاصـة لحقيقـة الحقائق، كشف ذوقي شهودياهي "أحوال وجدانية States of Fee Iing" وما كان كذلك يصعب نقـل مضمونه للغير في صورة لفظية دقيقة، خاصة أن هذه الأحوال سريعة الـزوال Transiency أي لا تستمر مع الصوفي لمدة طويلة، لذلك يلجأ الصوفية عامة إلى أسلوب من التعبير يتناسـب مـع هـذه الحقائق الروحية هو الأسلوب الرمزي.

أي إنهم يضعون مصطلحات وإشارات خاصة بهم وحدهم، وهذه الإشارات والرموز تحتمل في العادة معنيين أحدهما يفهم من ظاهر الألفاظ، والآخر يفهم بالتحليل والتعمق، وهذا المعنى الأخيـر لا يطالعه سوى أهله، أي يكاد يستغلق تماما على من ليس بصوفي، خاصة أنهم يعتمدون في مواجيـدهم ووصفها على الاستبطان الذاتي Introspection في المقام الأول، حيث أن تجاربهم ذاتيه محضة.

وهم في وضعهم للمصطلحات، ولكي تؤدي هذه المصطلحات وظيفتها عندهم فـإنهم يحملونهـا "الشحنات النفسية" ما يجعلها بعيدة الغور، مديدة الأبعاد، حتى تليق بالموقف الذي هم عليه في الوقـت "كالوجد، والفقد، والمهيبة، والأنس، والتجريد، والتغريد، والوقفة، والفترة والسحق والمحق، واللـوائح،

---

[290] الغزالي: المنقذ من الضلال.




والطوالع، والبوادة والرهبة، والاصطلاح والوله.. ونحو ذلك من المصطلحات التي يلخص الواحد منها موقفًا نفسيا يحتاج إلى حديث طويل"[291].

ولا ينبغي النظر إلى اصطلاحات الصوفية أو رموزهم على أنها مجرد ألفاظ بل هي تدل على المعاني التي وضعت لها في حالة "حركية"، كما يقول أستاذنا الدكتور أبو الوفا التفتازاني، فهي تصور اتجاه الانفعالات والأفكار التي تعتلج بها نفس المتصوف تصويرا حيا، فهي بمثابة أدوات توقظ مشاعر سامعيها بمعنى الكلمة بشرط أن يكونوا من أهل الذوق لها[292] فالصوفي لا غنى له عن لغة الرموز والإشارة. واصطناع أساليب التمثيل والتصوير لكي يترجم عن أحواله ويعبر عن مواجيده وأذواقه، مهما يكن في لغة الرمز من قصور عن التعبير، لأن موضوعات تجاربه خارجة عن نطاق الموضوعات الحسية والعقلية التي تعبر عنها اللغة الوصفية الاصطلاحية.

وإذا لجأ الصوفي في التعبير عن حبه الإلهي إلى لغة الرمز والإشارة – وكثيرا ما يفعل – فلا مناص من تأويل عباراته، وصرفها عن معانيها الظاهرة إلى معان روحية باطنة، كما هو الحال في الشعر الصوفي الذي هو تصوير فني قصد به الإشارة إلى حقائق روحية[293] وقد اشتهر الشعر الصوفي بنزعته: الغزلية والخمرية، ولعل المتصوفة قد "اصطنعوا هذا الأسلوب الرمزي لأنهم لم يجدوا طريقًا آخر ممكنًا يترجمون به عن رياضتهم الصوفية"[294] وقد كانت الرمزية الخمرية عند الصوفية عامة والأمير خاصة غنية صادقة، فقد عبروا عن شوق الروح إلى معرفة ا ، ومحبته بعبارات تكاد تكون عبارات المتغزلين من شعراء الغزل والنسيب بل إن هذا التشابه ليشتد أحيانًا، فتتوهم أن قصيدة صوفية هي قصيدة خمرية أو غزلية شأن قصائد شعراء الخمرة والغزل.

وقد عبر الأمير في قصيدة من قصائده[295] عن هذه الخمرة الإلهية، فذكر قدمها الذي يعود إلى ما قبل كسرى، وهي خمرة لا تسكر، وتحدث عن أثرها وبأنها هي العلم[296]، فهي معتقة من قبل كسرى، ومصونة عن كل ما يسيء إليها ويدنسها، فلا ضمها دن، ولا عابها رق، ولم تكن عرضة للتجارة. يقول:

---

[291] نشأة التصوف الإسلامي: د. إبراهيم بسيوني. ص ١٧١ دار المعارف عام ١٩٦٩.

[292] التصوف الإسلامي: د. أبو الوفا التفتازاني. ص ١٦٧.

[293] التصوف الثورة الروحية: د. أبو العلا عفيفي. ص ٢٤٩.

[294] الصوفية في الإسلام: نيكلسون. ص ١٠١ ترجمة وتعليق نور الدين شهبة.

[295] قصيدة "أستاذي الصوفي" ومطالعها:

أمسعود جاء السع والخير واليسر ... وولت جيوش النحس ليس لها ذكر

الديوان: ص ١٩٧ – ٢١٣.

[296] العلم يقصد به عند الصوفية "المعرفة" ونحن نتفق مع أستاذنا الدكتور عاطف العراقي في كتابه "ثورة العقل في الفلسفة العربية" على أن العلم عند الصوفية هو المعرفة القلبية الوجدانية، وليس العلم البرهاني العقلي.

معتقـة مـن قبـل كـسرى مـصونة ومـا ضـمها دون ولا نالهـا عـصر.
ولا شـانها زق ولا سـار سـائر بأحمالهـا كـلا ولا نالهـا شـجر[297]

إن خمرة الأمير تذكرنا بخمرة الجنة، التي نفى القرآن الكريم عنها الإسكار، فليس لها صفات الخمرة الدنيوية، فلا يصاب شاربها بالسكر، ولا بخفة العقل والجهل والحمق، وهي خمرة صافية:

ويشرب كأسـا صـرفه مـن مدامـة فيـا حبـذا كـأس ويـا حبـذا خمـر
فلا غـول فيهـا لا ولا عنهـا ترفـه وليس لهـا بـرد ولـيس لهـا حـر[298]

والخمر عند الأمير هي العلم كل العلم، ذلك أن نسبة هذه الخمرة إلى العلم كنسبة النقطة إلى محيط الدائرة، فهي مركز تدور حوله، وتتكئ عليه كل العلوم والمعارف:

هي العلم كل العلـم والمركـز الـذي بـه كـل علـم كـل حـين لـه دور[299]

وحين يصل الأمير إلى الحقائق الإلهية يعبر عن ذلك "بالشرب" الذي هو مرادف للمعرفة، ويقول إنه عرف من الأسرار ما يعجز الملوك عن معرفته، لأن ما يملكه الملوك من متع الحياة الدنيا المادية، لا يعد شيئًا بالنظر إلى ما أصبح الأمير يملكه من معرفة الأسرار العلوية، أي نعمة المعرفة التي هي فوق كل المعارف والنعم، إنها نعمة معرفة الحبيب:

وقد أنعـم الوهـاب فـضلا بـشربها فللـه حمـد دائـم ولـه الـشكر.
فقل الملـوك الأرض: أنـتم وشـأنكم فقـسمتكم ضـيزى وقـسمتنا كثـر
خذ الدنيا والأخـرى أباعينهـا معـا وهات لنـا كأسـا فهـذا لنـا وفـي[300]

وإذا كانت الخمرة عند الأمير رمزا للمعرفة الإلهية، أي معرفة الحبيب، واجب الوجود فإن المحبة، أي الغزل الصوفي، غزل إلهي للذات الإلهية المطلقة.

وقد تطرق الأمير إلى موضوع الغزل الإلهي في بعض قصائده الصوفية، مثل قصيدته "الحائية" حين تحدث عن وصال الحبيب ورؤيته، ثم مزج بين موضوعي الخمر والمحبة، ووصف ليالي اللقاء

---

(297) الديوان: ص ٢٠٨.
(298) الديوان: ص ٢٠٧.
(299) الديوان: ص ٢٠٨.
(300) الديوان: ص ٢١٢.

متنقلاً إلى حديثه عن التوجه الكلي للحبيب متطردا إلى الحديث عن صبر المحبين وأخيرا أبدي موقفـه من أهل العشق الإلهي[301].

٦- المكاشفات الصوفية

المكاشفات هي ثمرة التجربة الصوفية، فإذا كانت العلوم الحسية، مستمدة من الحس، وإذا كانت العلوم العقلية مستمدة من العقل، فإن المعارف الكشفية مستمدة من التجليات الإلهية، فهي علوم إلهامية ذوقية، تلقي في القلب إلقاء ولا يستدل عليها من العقل ولا تستنبط من الفكر، وهي نتيجـة المجاهـدة والرياضيات القلبية للسالك، ولا تكون إلا بعد قطع مراحل كثيرة في الطريق الصوفي، ومعظـم هـذه الكاشفات الصوفية تتصل بالذات الإلهية وحبها والعشق والغناء فيها، والهيام بها. ولهذا يقـول الأميـر مستخدما رموز التصوف:

"إن في الوجود معشوقة غير مرموقة، الأهوية إليها جانحة والقلوب بحبها الأخطار... ولا يصل إليها إلا الواحد بعد الواحد"[302].

وبهذه العبارة الرائعة يطلعنا الأمير على غاية الرحلة الصوفية، فإذا هي المعشوقة التي تهوهـا القلوب، وتطمح إلى رؤيتها الأبصار، ويتسرع إليها الناس من كل حدب وصوب، فقد كثر الـسالكون، وقل الواصلون الذين صبروا في مجاهداتهم الصوفية، من التقوى إلى الاستقامة إلى الكشف والاطلاع.

ولم يبخل عنا الأمير، من باب التحدث بالنعم، فأطلعنا على مكاشفته ووصوله، وعلـى درجـة منزلته بين الصوفيين بقوله: "فاعتمدت على الواحد الأحد، لا ألوي على أحد، فمررت في طريقي على فرق من فريقي، فرأيتهم بين سادم[303] باهت [304]، لا هو بالحاصل ولا الغايت. وبين حاير واقـف، التبست عليه المواقف، وبين غريق في لجج تلك البحار، وتائه في تلك المفاوز والقفار"[305].

ويشبه هذا ما يذكره الإمام الغزالي في أحد مؤلفاته حين يقول: "فانقطـاع الخلـق عـن الحـق بوقوفهم مع الخلق، ومع أنفسهم ورؤيتهم أفعالهم، وانحرافهم عن العقيدة الصحيحة، باختلاف أهـويتهم

---

(301) الديوان: ص ٢١٦ – ٢٢٤ وانظر دراسة مقارنة بين خمريات ابن الفارض الصوفي المصري وخمريات الأمير عبد القادر، وكذلك دراسة مقارنة بين حائية السهر وردي المقتول (٥٤٩ – ٥٨٧هـ) الغزلية وحائية الأمير ص ٢٢٨ – ٢٣٥ فؤاد صالح السيد: الأمير عبد القادر: متصوفًا وشاعرا.

(302) المواقف: المجلد ١ مقدمة المؤلف ص ١٠.

(303) السادم: الحزين.

(304) انقطع ودهش وتحير فهو مبهوت لا باهت ولا بهيت. انظر : لسان العرب لأبن منظور مجلد ٢ ص ١٢.

(305) المواقف: المجلد المقدمة ص ١٢.

إلى نفوس البشر مجبولة علية، وحب الجاه والمال والدنيا والرياسة والشهرة.. وغلبة الشهوات النفسانية على قلوبهم"[306].

ولكن الأمير ذلك الفارس النبيل، الذي تمرس منذ طفولته برياضة النفس والتغلب عليها وقهرها، من أجل تطهيرها والارتفاع بها إلى آفاق الروح، لا يتوقف ولا يلوي على شيء.

ولذلك يقول بلسان حال الفارس المتجرد المرتفع إلى ذروة العلا بهمة لا تنثني:

"وما زلت ممتطيا صهوتي النسر والغراب، محملاً نفسي كل مكروه، مستعذبا أنواع العذاب، لا تطمئن بي دار، ولا يستقر بي قرار، إلى أن ظهرت لي الأعلام، التي ظهرت لمن قبلي من الوافـدين الأعلام، ونادى المنادي، وحدا الحادي:

أبـــشر بوصـــل فهـــذه العلامـــات ۝ كـم طـالبين ودون الوصـل قـد مـاتوا

وألقي على ما ألقي عليهم، وثبت لدى ما ثبت لديهم. ولما وصلت حيث وصلوا، وحصلت علـى ما حصلوا، طلبت الإباحة والجواز، إلى التقدم والجواز، وقد عرفت الحقيقة والمجاز، فقيـل لـي: لا تتخط رقاب الصديقين[307].

والوصول الذي يعنيه الأمير هنا هو أعلى درجات التوحيد، وهو التوحيد الشهودي، وفيه يكاشف بالحقائق الإلهية مكاشفة قلبية، وهو في هذا المقام ليس في حاجة إلى الاستدلال على الـذات الإلهيـة، استدلالاً منطقيا عقليا، قوامه البرهان الفلسفي، فهذا مستوى من التوحيد قد خلفـه وراءه وإنمـا هنـا مشاهدة قلبية تفيض عليه منة من ا تعالى، لا يدعي فيها الصوفي أنه توصل إليهـا بعقلـه وفكـره ونظره. أو كسبه، بل فاضت عليه من محض العناية الإلهية.

ومن هنا يختلف الصوفية أهل الإلهام والمكاشفة عن العلماء والفلاسفة أصحاب النظر فأربـاب البصائر كما يقول حجة الإسلام الغزالي: "ما رأوا شيئًا إلا رأوا ا معه، وربما زاد هذا بعضهم فقال: "ما رأيت شيئًا إلا رأيت ا قبله". لأن منهم من يرى الأشياء به. ومنهم من يـرى الأشـياء، فيـراه بالأشياء.. فالأول صاحب مشاهدة والثاني صاحب الاستدلال عليه، والأول درجة الصديقية، والثـاني درجة العلماء الراسخين"[308].

ولا يعني هذا أن الصوفية يرفضون العقل، أو لا يوافقون على الاستدلالات العقلية البرهانيـة، التي تؤدي إلى معرفة ا ، ولكنهم يرون هذا مستوى من الإدراك يعرفه كل صوفي في بداية سـلوكه، بل يعرفه كل من أوتي فطرة عقلية سوية، ولكن الصوفي يتجاوز هذه المرحلة إلـى مـستويات مـن

---

[306] روضة الطالبين: الغزالي. ص ١١.
[307] المواقف: المجلد ١ ص ١٣.
[308] مشكاة الأنوار: الغزالي . ص ٦٣.

المعرفة أخرى، تكون فيها الحقائق المستدل عليها في أول الطريق، مشاهدة ومعاينة بحاسـة القلـب، بإدراك مباشر، يشبه إدراك الحواس في مباشرتها لموضوعاتها، مع الفارق الـشاسع بـين الحـواس والقلب، في نهاية الطريق أو في مرحلة الوصل. ولقد وصل الأمير عبد القادر، بفضل ا تعالى ومنته عليه، إلى هذه الذات المطلقة التي يكنيها بالمعشوقة المحبوبة وحصل عندها على رتبة المـنعم علـيهم "من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين"[309].

ويبدأ الأمير طريق العودة الأرضية، بعد أن عرف الحقيقة الأزلية الأبدية، حقيقة واجب الوجود المطلق، الحقيقة الإلهية، ولكن إذا كان قد بدأ رحلته بالنفس الأمارة فإنه لا يعود من رحلتـه هـذا إلا بالنفس المطمئنة التي شاهدت وعاينت واطمأنت، ولكن تعلوه أمارات الاندهاش، وتعقد لسانه غرابة ما شاهده وعاينه، فهو لا يستطيع أن يعبر عن تجربته هذه لأنها تجربة روحية، تتـصل بعـوالم غريبـه وبعيدة، لا يطأ ثراها إلى الأرواح المجردة التي تنزهت عن كثافة المادة وتخلصت من أسر جاذبيتهـا، ولذا يخاطب الأمير أصحاب بقوله: "يا قوم لا تعجلوا بالعتب واللوم، أرأيتم لو جاءكم عنين[310]، عـدم حاسة الذوق، وقال: عرفوني لذة الجماع، بم كنتم تفهمونه علم ذلك وتعلمونه؟ فقالوا لا سبيل إلا الذوق لما هنالك: فقلت لهم: وهذا من ذلك"[311].

وفي الحقيقة فقد لمس الأمير عبد القادر في النص السابق مشكلة خطيـرة فـي التـصوف، أشرنا إليها في الفقرات السابقة، وهي مشكلة تواجه كل من عانى التصوف تجربة وذوقًا، وعاشها حالاً وممارسة، وإذ تقف اللغة نفسها حائلاً دونه والتعبير عن هذه التجربة، فتجربتـه الـصوفية، تجربـة روحية، يمكن تسميتها" ما ورائية" تتصل بالذات الأحدية السرمدية، وحين يريد التعبير عن تلك التجربة بلغته الزمانية المكانية المألوفة، فإنه يسقط في شباك الأخطاء اللغوية القاتلة، فيشتمل لفظه على خطـأ صريح، لا يمكن الاحتراز عنه، قد يبلغ حد الكفر، في نظر البعض وذلك راجع لاختلاف طبيعتي كـل من الفظ اللغوي والمعنى الروحي، الذي يعبر عنه، اختلافًا شاسعا، فليس بين اللفظ والمعنى أي وجـه من أوجه المناسبة أو التشابه، ولذلك يقول الغزالي عن هؤلاء الصوفية الذين عاشوا تلك التجربة:

"ومن أول الطريقة تبتدئ المشاهدات والمكاشفات، حتى أنهم في يقظتهم يشاهدون الملائكـة وأرواح الأنبياء ويسمعون منهم أصواتًا ويقتبسون منهم فوائد، ثم يترقى الحال من مـشاهدة الـصور والأمثال إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق، فلا يحاول معبر أن يعبر عنها إلا اشتمل لفظه علـى

---

[309] سورة النساء. آية ٦٨.

[310] العنين: هو الذي لا يقدر على الجماع لمرض أو هرم، أي الذي لا يأتي النساء ولا يريدهن. : لسان العرب: لابن منظور جـ ١٣ ص ٢٩١.

[311] المواقف: المجلد ١ ص ١٣.

خطأ صريح، لا يمكنه الاحتراز عنه. وعلى الجملة ينتهي الأمر إلى قرب يكاد يتخيل منه طائفة الحلول وطائفة الاتحاد، وطائفة الوصول[312].

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فإن المعارف والمكاشفات الصوفية، معارف ومدركات وجدانية ذوقية، تخص إدراكًا داخليا عميقًا، يشمل حقيقة الذات الإنسانية، فهي معرفة ليست حسية تتم عن طريق الحواس، ولا معرفة عقلية يستخدم فيها العقل مقولاته وأقيسته وبراهينه وأساليبه اللغوية الوصفية المتفق عليها، بل هي معرفة روحية تتم بوجدان الإنسان السالك وبصيرته Intaition " فيها يباشر القلب موضوعه حتى كأنه يعايشه ويختلط به ليس بينهما حجاب أو تصور أو حد، بل الذات الإنسانية في وعيها بموضوعها الأسمى لا تعي نفسها، ولا تعي أنها تعي، وإن وعت نفسها وأدركت في لحظة مشاهدتها لذاتها فإن هذا يعد نقصا في المشاهدة؛ حيث إن المشاهدة تخاص من فردية وأنانية، فلا التفات إلى النفس وإلى إدراكها، بل فناء تام بموضوع المشاهدة واحتراق كامل في تلك المكاشفة، ومن هنا يأتي تعبير الصوفية عن تلك المشاهدة بأنه ذوق ووجدان، وهو إدراك لا يمكن نقله للغير، ما دام هذا الغير لم يمارسه ويحياه بنفسه حالاً وليس مقالاً، ولذلك يشبه الأمير هذا الأمر بالعنين الذي لا يمكن تعريفه لذة الجماع، لأنه ممارسة لا يدركها إلا من أوتى قدراتها، ومخاطبة من فقد تلك القدرة بغير طائل، ومن هنا يأتي تحذير الصوفية عامة بعدم الخوض في تلك المكاشفات والمشاهدات فنجد ابن خلدون يقول: "أما علم المكاشفة الذي هو ثمرة المجاهدات ونتيجتها فلم يكن سبيل إلى الخوض فيه. وقد حذر القوم – رضي ا عنهم – من إيداعه الكتب أو الكلام في شيء فيه إلا ما يدور بينهم في المفاوضات على سبيل الرمز والإيماء تمثيلاً وإجمالاً ولا يكشفون لغيرهم شيئًا من معانيه علما بقصور الإفهام عن احتماله. ووقوفًا مع حدود الشريعة في الأخذ بما لا يعني وأدبا مع ا في صون أسرار الربوبية. وإن صدر عن أحد منهم كلمة من ذلك سموه شطحا"[313] وفي ضوء هذا يمكننا فهم حكمة من حكم "ابن عطاء ا السكندري" حين يقول:

"العارف إذا أشار وجد الحق أقرب إليه من إشارته، بل العارف من لا إشارة له، لفنائه في وجوده وانطوائه في شهوده"[314].

ولذلك أيضا "أبو يزيد البسطامي" رحمه ا تعالى: أبعدهم من ا ، أكثرهم إشارة إليه" وهذا ما أكده الشيخ سعيد بن أبي الخير[315] (٣٥٧ – ٤٤٠ هـ) حيث يقول بأنه إذا الإنسان " جذب جذبة

---

[312] المنقذ من الضلال: الغزالي. ص ١٧٨.

[313] شفاء السائل: ابن خلدون. ص ٤٨، ٤٩.

[314] حكم ابن عطاء ا الكسندري: ابن عطاء ا الكسندري . تحقيق د. عبد الحليم محمود. ص ٢٢٤ جـ ١ بشرح الرندي.

[315] أسرار التوحيد: سعيد بن أبي الخير. ترجمة د. إسعاد عبد الهادي. ص ٣٢٥ مصر عام ١٩٦٦.

من الخلق إلى معاينة الذات، فحينئذ صار العلم عينا، والعين كشفًا والكشف شهودا، والشهود وجـودا، وصار الكلام خرسا، والحياة موتًا وانقطعت العبارات، وانمحت الإشارات".

فإذا أردنا استجلاء موقف الأمير من علم المكاشفات استجلاء تاما وتساءلنا هل صرح عـن حالات الكشف التي وصل إليها وعبر عنها؟ فسنجده يجيبنا في الموقف الثالث عشر من مواقفه حـين يقول:

"وقد أمرني الحق تعالى – بالتحدث بالنعم (نعم الرؤيا والواردات الإلهيـة) بـالأمر العـام لرسوله – صلى ا عليه وسلم – **وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ** (سـورة الـضحى الآيـة:١١) وأمرنـي بالخصوص مرارا بإشارة هذه الآية الشريفة"[316].

ومن هنا وبسبب تكرار الأمر الإلهي إلى الأمير بالتحدث بالنعم، نجده لا يخبر أحدا بـشيء من تلك المكاشفات والمشاهدات إلا لمن وجد لديه الاستعداد الروحي لقبولها، ويشجعه هذا الإخبار فـي خوضه للتجربة الصوفية وتحمل مشقاتها وصعابها يقول:

"هذه الآية الكريمة" **وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ** ألقيت علي بالإلقاء الغيبي مـرارا عديـدة لا أحصيها.. والمراد بالنعمة هنا، نعمة العلم والمعرفة با – تعالى – والعلم بما جاءت به الرسل، عليهم الصلاة والسلام، من المعاملات والأمور والمغيبات. والمراد بالتحدث بها، إفشاؤها وبثهـا لمـستحقيها المستعدين لقبولها. إذ ما كل علم يصلح لكل الناس، ولا كل الناس يصلح لكل علم أهل، لهـم اسـتعداد لقبوله، وهمة والتفات إلى تحصيله"[317].

لقد حذر الأمير دائما من كشف العلوم التوحيدية، التي هي ثمرة المجاهـدات والمكابـدات، ورأى أنها يجب أن تبقى سرا من الأسرار الأمينة بين العبد وبين ربه إلى الموت. ويعلل ذلك، وهـو مصيب في هذا التعليل بقوله:

"في إذاعة أسرار الربوبية لغير أهلها ضرران: ضرر راجع إلى المذيع، وضرر راجع إلى المذاع إليه. فالمذيع ربما رمى بالكفر والزندقة، وربما أفضى الأمر إلى قتله، وربما وصل الشر علـى أصحابه ومن ينتسب إليه. والمذاع إليه ربما افتتن أو حار أو فهم الأمر على غير وجهه فضل"[318].

ويخشى الأمير أكثر ما يخشى الفقهاء من علماء الظاهر، والعامة من الناس الذين يحملـون الشيء على غير محمله" فإنه إن سمع هذا الكلام فقيه فتح محجوب بنقله وعقله، نسبني إلى ما ينبغـي مما أنا بريء من سوء العقيدة والمروق من الدين. وإن سمعه عامي، فلربما كان بليـد الطبـع جامـد

[316] المواقف: المجلد ١ الموقف ١٣ ص ٤٨.
[317] المواقف: المجلد ١ الموقف ٨٣ ص ١٥٩.
[318] المواقف: المجلد ١ الموقف ١٥ ص ٣٥٤ ، ٣٥٥.

الذهن، فيحمله على غير المراد به، فيضل ويزيغ عن الصراط المستقيم"[319] والأمير هنا يـشير إلـى المحن والوقائع المشهورة التي كانت تقع دائما بين الفقهاء والصوفية وما تجره من ويـلات وعـذابات لهؤلاء الأخيرين، ولذلك ودرءا للشبهات ومحاولة تجنب الصراعات التي يمكن أن تنشأ من جراء ذلك، ينعي الأمير على بعض الصوفية، وعلى مريديهم من أهل زمانه إفشاءهم لبعض الأسـرار الإلهيـة، ويتهمهم بالجهل، وبعدم تجربتهم الروحية الذوقية، ويتطاولهم على الجناب الإلهي، ويدعوهم إلى صون هذا الأسرار"[320] لكي يتعلم الصوفي "الصبر المعارف الإلهية والأسرار الربانية، بعدم إذاعتها لغيـر أهلها"[321] ويرى الأمير أن بعض هذا الأسرار "يتداولها الصوفية مع أبناء جنـسهم وأهـل جلـدتهم المؤمنين بهم وبكلامهم، فلا يطالبونهم بدليل"[322].

ويلوح الأمير بالمعارف الإلهية التي من ا عليه بها، ويخبرنا في المواقف بأن ا تعـالى تفضل عليه بمعرفة السر الإلهي، ولكن بعد أن أخذه عن نفسه، وقربه إليه حتى" قيل لي مثـل قولـه الحلاج، غير أن الحلاج قالها، وأنا قيلت لي، ولا أقولها"[323].

ويخبرنا الأمير، على سبيل الإشارة، أن ا تعالى قد فـتح عليـه بـالكثير مـن الحقـائق والمعارف الإلهية ولكنه شديد التكتم والتقية إذ "لولا لجام الشرع لقلت ما لم يقل:

ولكن لجام الشرع أحكم حكمه لذاك تراني حائما ومموها[324]

وهو في هذا يشبه حجة الإسلام الغزالي بعد خوضه للتجربة الصوفية حيث قال في "المنقـذ من الضلال": "وكان ما كان مما لست أذكره.. فظن خيرا ولا تسأل عن الخير" وينصح الأمير سامعيه وتلاميذه ممن لا يدركون كثيرا من هذه الحقائق بعد. بعدم معارضة هذه الطاقة الصوفية، بل يـدعوهم إلى محبة هذه الطائفة العلية والتصديق لكلامهم، فهم القوم الذين لا يشقي جليسهم" ومحبـتهم عنـوان السعادة، والإعراض عنهم عنوان الشقاوة فإياك يا أخي أن يصدك صاد أو يعارضك معارض"[325].

---

[319] المواقف: المجلد ٢ الموقف ٢٩٨ ص ٩٤٥.

[320] ويعلل ذلك بأن هؤلاء المشايخ لم يصلوا إلى الكشوفات الإلهية بالمجاهدات والمكابدات وإنما تلقنوها من الكتب أو أخذوها من غيرهم، وما ذاقوا لها ولا عرفوا حقيقتها؛ "إذ لو عرفوا حقيقتها لصانوها وشحوا بها، كما شحوا بالذهب، وأمور الدنيا التي عرفوا حقيقتها "المواقف: المجلد ١ الموقف ١٥٨ ص ٣٥٥.

[321] المواقف: المجلد ١ الموقف ١٨٩ ص ٤١٣.

[322] المواقف: المجلد ٢ الموقف ٢٣١ص ٥١٩.

[323] المواقف: المجلد ١ الموقف ٧ ص ٣٨. يشير إلى شطحة من شطحات العلاج التي أخذ بها خاصة من فقهاء عصره، الذين لم يراعوا لسان الحال الذي قيلت به، واحتكموا إلى ظاهر الشرع الذي يتعارض معها.

[324] المواقف: المجلد ١ الموقف ١٧١ ص ٣٤١.

[325] المواقف: المجلد ٢ الموقف ٢٣١ ص ٥٢٠.

الخاتمة

نخلص من كل ذلك إلى أن الأمير عبد القادر الجزائري يعتبر، بعد أن برهنا على ذلك بالنصوص والمواقف، والمجدد الديني في المغرب العربي للقرن الرابع عشر الهجري، وقد اجتمعت فيه بشكل أساسي ميزتان، لا تجتمعان إلا في تلك الشخصيات الإسلامية الفذة، ألا وهما القدرة العقلية والروحية الرائدة، وكذلك السلوك والممارسة الساميين؛ أي القدرة على النظر والتبصر وكذلك القدرة على العمل.

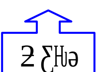
واتسمت حياته الأولى، فضلاً عن تحصيل العلم واستيعابه، بالجهاد ضد الغزو الفرنسي لأرض الجزائر، كما اتسمت حياته في مرحلتها التالية بالجهاد الفكري والروحي والعكوف على تربية الأجيال وتعليمها؛ حيث اعتبرنا بناء الإنسان العربي والمسلم هذا هو السبيل الصحيح إلى التحرير الحقيقي.

وقد تعرضنا في البحث لمراحل حياة الأمير، وتبين لنا أن إقامته الجبرية في "وهران" مع والده كان لها أثرها العميق في بلورة شخصية، حيث عكف هو ووالده على الدراسة والبحث وكذلك الاطلاع على مجريات الأمور العسكرية والسياسية الخاصة بحكومة الخلافة المتهافتة.

كذلك كانت رحلته لأداء فريضة الحج بعد إطلاق سراحه مع والده، فرصة لمعرفته عن كثب بنهضة مصر الحديثة، وبتلك التطورات العصرية التي أخذ يدخلها والي مصر محمد علي باشا، مما سيدفعه إلى الاهتداء بخطاه حين يبني دولته الفنية على أساس حديثة تشبه تلك التي اتخذها محمد علي في مصر. كما كانت رحلته للشرق أيضا فرصة لإحاطته بالعديد من الثقافات العربية والإسلامية خاصة الفلسفية والدينية واللغوية.

وتعرضنا لمرحلة الجهاد التي اضطلع بها الأمير ضد الغزو الفرنسي لبلاده، ومبايعة أهل البلاد بالإمارة، وتأسيسه أثناء ذلك لدولة فتية تأخذ بأسباب العصر وبأدواته ووسائله، فقد اهتم العلم والتعليم اهتماما عظيما، وأوجد نظاما تربويا جديدا، يهتم بالعلوم المدنية اهتمامه بالعلوم الدينية، ويعتني بالكتب والمخطوطات كأدوات هامة لا غنى عنها في هذا النظام التعليمي، موليا جهدا ضخما لبناء المدارس والزوايا والمساجد، ومعطيها الأهمية التعليمية والتربوية لدور العبادة، بحيث يعيد للأذهان ذلك الدور الخطير الذي انتزع منها في عصور الانحطاط والتخلف، مما أفقدها الكثير من تأثيرها الحضاري والريادي في الأمة.

وقد برزت في هذه المرحلة نزعته الإنسانية الواضحة، خاصة في معالمه الإنسانية للأسرى والتزامه بعهوده ومواثيقه التي كان يعقدها مع محاربيه، على الرغم من اتصاف العدو بنكث العهود وكثرة الغدر. وكانت للأمير، صلات دولية واسعة، مكثفة ومتعددة ومتنوعة مع كثير من ساسة العالم،



وقاداته العسكريين، والسياسيين والمفكرين. وحظي بالتقدير والإكبار من طرف الجميع بفضل مواقفه البطولية الخالدة، في الحرب، والسلم، وسعة اطلاعه، وتفهمه للمشاكل وعمق ثقافته وتفكيره، وبعد نظره في القضايا والأبعاد السياسية العسكرية.

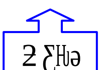
ويتبين لنا أن الأمير عبد القادر حين وجد أن الظروف الداخلية لبلاده وللمغرب العربي عامة وكذلك الظروف والملابسات الدولية في ذلك العهد الاستعماري لا تساعده على تحقيق أهدافه، غير إستراتيجيته، فأغمد السيف وجرد القلم، وبدأ مرحلة من الجهاد تعتبر في نظر الكثيرين أشد وأقسى وأولى بالاعتبار والتربية والتعليم للأمة المسلمة التي جهلت حقوقها وواجباتها، ولم تهتم بالجانب الحضاري والثقافي والعلمي فسقطت فريسة أنواع عديدة من الاستعمار، ليس أشدها ذلك الاستعمار العسكري المسلح، الذي وقف الأمير مواجهته سبعة عشر عاما، أذاقه فيها مرارة الصمود والتصدي وانتزاع أثناءها إعجاب العالم، وإعجاب هؤلاء الجنرالات الذين كان يحاربهم، فوجدنا في عام ١٨٤٠ م وأثناء ثورة الأمير العسكرية المرشال "سولت يقول:

"لا يوجد الآن أحد في العالم، يستحق أن يلقب بالأكبر إلا ثلاثة رجال، وكلهم مسلمون وهم: الأمير عبد القادر الجزائري، ومحمد علي باشا، والشيخ شامل الدغستاني[326] ووجدنا حين عالجنا المرحلة الثانية من حياة الأمير أنه يغلب عليها الاهتمام بالنواحي الفكرية والثقافية والعلمية على النواحي البطولية والقتالية والعسكرية، حيث يعكف الأمير على كتبه ودراساته وعبادته، ويأخذ في الدرس والتحصيل بعمق كبير، كما يأخذ في إلقاء الدروس والاهتمام بنخبته من العلماء الصفوة، اهتم بتعليمهم وتوجيههم فكريا وخلقيا وروحيا، ورأى في إعدادهم طريقًا جيدا إلى تحقيق الحرية والاستقلال، وهذا ما سوف يرتضيه من بعد مفكر كبير في العصر الحديث هو الإمام محمد عبده الذي سينتهج طريق التعليم والتثقيف وسيلة إلى تحقيق الاستقلال وتكوين الذات.

وقد ضرب الأمير في فترة وجوده بدمشق، تلك الفترة التي تعد أخصب مرحلة في حياته، مثلاً أعلى في التسامح والمحبة والبعد عن التعصب، وتجلي هذا في موقفه الإنساني النبيل من فتنة دمشق عام ١٢٦٧ هـ/ ١٨٦٠ م؛ مما دعا الدول الأوربية إلى الاهتمام به والنظر إليه بعين الإجلال، بل وتقليده الأوسمة وتسجيله بين كبار المفكرين العالميين وحين تعرضنا المؤلفات الأمير، وتعرفنا آثاره الشعرية والنثرية، تبين لنا أن الديوان الذي خلفه لا يضم كل أشعاره، لأن جامع الديوان ولده الأمير محمدا استبعد قصائد والده الصوفية، كما أن الأمير فقد كثيرا من نظمه في مرحلة الصبا، وكذلك فقد الكثير من شعره حين استولى العدو على دياره، وقد دلت مؤلفات الأمير ورسائله الباقية على تمرسه

---

(326) الشيخ شامل الدغستاني ثائر عظيم عاصر الأمير، وقاد ثورة إسلامية في جبال القوقاز بروسيا، ضد الطغيان القيصري، حمل لواءها ربع قرن من الزمان. انظر: في ذكرى الأمير : د. صالح خرفى. ص ٨٠، ٨١ الجزائر عام ١٩٨٤.



في المجال الصوفي والأخلاقي والاجتماعي والسياسي، وهذه الرسائل في حاجة إلى مزيد من الدراسة والتحليل. وقد تبين لنا إسهامه الفكري برسالته المسماة" المقراض الحاد" حيث استقصى كل مـا كتـب عن الديانات والرسل والكتب السماوية، وبرز التجديد الفكري للأمير برسالته" ذكرى العاقـل وتنبيـه الغافل" حيث خرج عن دائرة الأبحاث الدينية والأدبية والتقليدية في عصره، وأخذ يدلي ببعض الأبحاث السلفية وإن لم تكن بالعمق الكافي. وتدل تعليقات الأمير على حاشية جدة عبد القادر بن خده في علـم الكلام، على تمكنه من هذا العلم وقدرته على أن يدلي فيه بدلوه.

أما كتابه "المواقف" الذي وضعه في ثلاثة مجلدات فهو حصيلة المجاهدات الصوفية التي جاهدها الأمير في سلوكه لطريق الصوفية، وفيه كثير من آرائه الصوفية ورؤاه الروحية التـي تجعلـه فـي مصاف كثير من أساتذة التصوف المحللين لتلك التجربة الروحية الفريدة[327].

ويتبين لنا من دراسة مؤلفاته، محاربته الشديدة للتقليد والمقلدين، وتمسكه بالإيمان النـابع مـن التجربة الروحية الخاصة، فهو يجعل من هذا الإيمان الذوقي مرادف لمستوى الإحسان ذلك المـستوى الإيماني الرفيع الذي يمكن للسالك أن يصل إليه بكثير من المراقبة والمجاهدة وهـو أعلـى مـستوى روحي يمكن أن يصل إليه المسلم، ويحقق له درجة من العرفان رفيعة تلي درجة النبوة وتسمى عنـد أهل التصوف ولاية.

وعلى الرغم من تلقي الأمير لكثير من مبادئ السلوك الصوفي عن طريـق شـيوخ التـصوف وأساتذته وقد كان يحترمهم ويكثر من أجلالهم، إلا أنه ظل يؤكد على أن التجربـة الـصوفية تجربـة شخصية ذاتية، المعول فيها على ذات الصوفي وجهاده وقدرته على الترقي والعروج الروحي في ذلك النهج الخاص، فالشيخ في نظر الأمير، لا يعطي المريد إلا ما أعطاه له استعداده إذ أن لكل من الشيخ والمريد مواجيده وأذواقه وتجاربه الروحية، فالتجربة الروحية هي في نهاية الأمر تجربـة شخـصية ذاتية، تحقق إدراكًا عرفانيا لا يمكن نقله أو التعبير عنه ولا يدرك إلا من عاناه وتمرس به.

وقد برهن الأمير بسيرته الذاتية وبكتاباته الصوفية، إلى أن التصوف يجمع بين العبادة النظرية، وهي في نظره العلم، والعبادة العملية، وهي السلوك والأخلاق والعروج الروحي في طريق التصوف، فالصوفية لا يكتفون بعبادات الجوارح أو يتوقفون عند ظاهرها، بل يغوصون في تلك العبادات إلى ما رواءها من أسرار وحكم خفية، ويعولون على أعمال القلوب والباطن بعد إحكـام أعمـال الجـوارح والظاهر.

---

[327] وهذا الكتاب فيه كثير من الآراء والنظريات الفلسفية والصوفية، سوف نعكف على دراستها في القريـب إن شـاء ا ، وهي تحتاج إلى مزيد من التأمل والفهم، خاصة وأن الصوفية يضمنون كتبهم كثيرا مـن الإشـارات والإيمـاءات والرموز التي لا يصرحون بها، والتي يحتاج فهمها إلى كثير من التعمق والتأمل.

ومن هنا كانت ممارسات الأمير الروحية في أخريات حياته؛ حيث أخذ السلوك والترقي من أجل الوصول إلى درجة "الأعظم هدي"، وهي درجة المكاشفة والمشاهدة وتحقيق الإدراك المعرفـي عـن طريق التجليات التي لا تكون إلا بعد كثير من المراقبة والمجاهدة، وعبور كثير من المقامات والأحوال فينكشف له الكثير من المعارف والحقائق الإلهية التي تظل رغم هذا من الأسرار الربانية التـي يـرى الأمير أنه يجب على الصوفي عدم الإفصاح عنها، فقد نشأت كثير من المشاكل بالنسبة لأهل التصوف نتيجة البوح بمثل هذه الأسرار خاصة حين يتوقف حيالها من ليسوا مؤهلين لإدراكها من العوام أو من الفقهاء، فتؤدي إلى الفتنة، كما حدث قديما لكثير من الصوفية كالحلاج والسهروردي المقتول.

ولذلك يستخدم الأمير أساليب أساتذة التصوف في الرمز والإشارة بدلاً من التعبير والتـصريح، ومن هنا يكثر تأليف الأمير للشعر الصوفي الذي يضمنه كثيرا من الحقائق والمواجيد والإيماءات التي لا يدركها إلا أهلها، ولذلك أيضا وجدنا الأمير ينحو منحي الإمام الغزالي في اعتبار التجربة الـصوفية تجربة روحية ذوقية خالصة، لا يمكن نقلها إلى الغير ولا التعبير عنها إلا رمزا ولأهلها، ممن يشتغلون بها ويتمرسون بأحوالها ون هؤلاء الذين يأخذون التصوف عن الكتب المؤلفات، دون أن يحملوا أنفسهم مشقة المراقبة والمجاهدة، التي تثمر الأحوال والمقامات ويخاطبهم الأمير شعرا بقوله:

عنـدي مـن العلـم لبـه وجـوهره — أعيـــنهم ترنـــو إلـــى الـــصدف
قـــد قيـــدتهم عوائـــد وثبطـــتهم — مـــن يمـــشي نحـــو الظلمـــة الـــسدف
فلو وجـدت لـه أهـلاً لبحـت بـه — مـستخرجا كنـزه المخفـوف بـالطرف
لكـــن أهلـــه قـــدموا فـــلا طالـــب — تلقاه يسمو إلـى العليـاء والـشرف[328]

وقد رأينا من سيرة الأمير وجهاده وكذلك من كتبه ومؤلفاته البرهان الساطع على مدى امتلاء حياة الصوفية الحق بالعمل والجهاد والسلوك الرفيع، وقد حقق المثل العالي على مدى ارتباط الظـاهر بالباطن، والإيمان النظري المجرد بالسلوك العملي النبيل، وكانت حياته بشقيها الجهـادي العـسكري والفكري الروحي، خير دليل على مدى الارتباط الشديد بين هذين الشقين، الذين انفصل كل منهما عن الآخر في عصور الانحسار الثقافي والروحي للعالم العربي والإسلامي، وقد انبعث الأمير في القـرن الثالث الهجري فارسا عربيا مسلما يعلن بداية الصحوة الإسلامية بعد سبات للمسلمين طويل، مبرهنـا بحياته وكتاباته على أن هذا الدين يصلح للدنيا كما يصلح للآخرة، ولا نجاة لهذه الأمة إلا بالتمسك بـه والحياة وفقًا له.

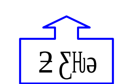
---

[328] المواقف : المجلد ١ المقدمة ص ٢١.

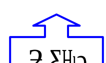
المصادر والمراجع العربية

- ابن خلدون، عبد الرحمن:
  - شفاء السائل لتهذيب المسائل. نشره وعلق عليه الأب عناطيوس عبده خليفة اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية، بيروت: ١٩٥٩ م.
  - المقدمة: طبعة دار الشعب. مصر. بدون تاريخ.
- ابن خلكان، أحمد:
  - وفيات الأعيان وأنباء الزمان "الجزء الثاني" القاهرة عام ١٢٩٩ هـ.
- ابن عربي، محي الدين محمد:
  - لسان العرب، بيروت عام ١٩٥٥- ١٩٥٦ م.
- البربير، عبد الرحمن خليل:
  - الأمير عبد القادر الجزائري. مجلة الكشاف اللبنانية. المجلد الثاني، الجـزء التاسـع. بيروت عام ١٩٢٨ م.
- بروكلمان، كارل:
  - تاريخ الأدب العربي "الجزء الثالث ترجمة د. عبد الحليم النجار. الطبعة الثانية. مصر عام ١٩٦٩ م.
  - تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه أمين فارسي ومنير البعلبكي. الطبعة الخامـسة، بيروت عام ١٩٦٨ م.
- البستاني، المعلم بطرس:
  - دائرة المعارف. المجلد الخامس، والسادس والسابع – بيروت عام ١٨٨١، ١٨٨٢ م.
- بو عزيز، يحيى:
  - الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري، الطبعة الثالثة. تونس عام ١٩٨٣.
- البيطار، الشيخ عبد الرازق:
  - حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر. حققه محمد بهجة البيطار. الجـزء الثـاني. دمشق عام ١٩٦٣.
- تشرشل، شارل هنري:
  - حياة الأمير عبد القادر، ترجمة وقدم له وعلق عليه الدكتور أبو القاسم سعد ا ، توفى عام ١٩٧٤ م.
- الجرجاني، علي:
  - التعريفات. الطبعة الأولى. مصر عام ١٣٠٦ هـ.

- الجزائري، الأمير عبد القادر:
  - الديوان. شرح وتحقيق الدكتور ممدوح حقي، الطبعة الثانية. بيروت. عام ١٩٦٤ م.
  - ذكرى العاقل وتنبيه الغافل. تحقيق وتقديم الدكتور ممدوح حقي، بيروت. عـام ١٩٦٦ م.
  - المقراض الحاد لقطع لسان متقضي دين الإسلام بالباطل والإلحاد. محررها محمد بـن عبد ا الخالدي المغربي. بيروت. بدون تاريخ.
  - المواقف في الوعظ والإرشاد. الطبعة الثانية. تصحيح ومراجعة لجنـة مـن علمـاء دمشق. عام ١٩٦٦ و ١٩٦٧ م.
  - تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر. شرح وتحقيق الـدكتور ممـدوح حقي. الطبعة الثانية. بيروت. عام ١٩٦٤.
- الجزائري، الأمير محمد بن الأمير عبد القادر:
  - عقد الأجياد في الصافنات الجياد. بيروت. بدون تاريخ.
- الجندي، أنور:
  - تراجم الأعلام المعاصرين في العالم الإسلامي. الطبعة الأولى. الأنجلو المصرية عام – ١٩٧٠ م – الحفناوي، محمد:
  - تعريف الخلف رجال السلف. الجزائر عام ١٩٠٦ م.
  - د. خرفي، صالح: في ذكرى الأمير. الجزائري عام ١٩٨٤ م.
- رويلة، مدور:
  - وشاح الكتائب وزينة الجيش الحمدي الغالب. تحقيق محمد عبد الكريم. الجزائري عام ١٩٦٨ م.
- الزركلي، خير الدين:
  - الأعلام. الطبعة الثانية. مصر ١٩٥٧ م.
- زروق، أحمد:
  - قواعد التصوف علق عليه الشيخ إبراهيم اليعقوبي. مصر عام ١٩٦٨ م.
- زيدان، جرجي:
  - الأمير عبد القادر الجزائري. مجلة الهلال المصرية. السنة الأولى، الجـزء الخـامس والجزء السادس عام ١٩٨٣ م.
  - تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر. الجزء الأول. الطبعة الثانية. الهـلال. مصر ١٩١٠ م.
- السهروردي، شهاب الدين: عوارف المعارف. بهامش إحياء علوم الدين. حلمي عام ١٩٥٧ م.



- الشطي، محمد جميل:
- اللمع في التصوف. حقيقة وقدم له. د. عبد الحليم محمود. وطه عبد الباقي سرور. مصر عام ١٩٦٠ م.
- العراقي، محمد عاطف: ثورة العقل في الفلسفة العربية. الطبعة الثالثة. دار المعارف. مصر عام ١٩٧٦ م.
- العقاد، صلاح:
- تطور السياسة الفرنسية في الجزائر. منشورات جامعة الدول العربية. القاهرة عام ١٩٦٠ م.
- عون، فيصل بدير: التصوف الإسلامي. مصر عام ١٩٨٣ م.
- عياد، أحمد توفيق:
- التصوف الإسلامي تاريخه، ومدارسه وطبيعته وأثره. الأنجلو المصرية. القاهرة عام ١٩٧٠ م.
- الغزالي: انظر آخر الفهرس.
- القشيري، عبد الكريم:
- الرسالة القشيرية. تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف. مصر عام ١٩٦٦ م.
- كحالة، عمر رضا:
- معجم المؤلفين. دمشق عام ١٩٥٧ م.
- الكلاباذي، محمد:
- التعرف لمذهب أهل التصوف. نشر وتصحيح آرثر – جون أربري. مصر عام ١٩٣٣ م.
- المرابط، جواد:
- التصوف والأمير عبد القادر الحسني الجزائري. دار اليقظة العربية. دمشق عام ١٩٦٦ م.
- نادر، وديع:
- الأمير عبد القادر الجزائري. مجلة "المورد الصافي اللبنانية. بيروت ١٩١١ المجلد الثاني، الجزء الثالث. ٩
- نيكلسون، رنيولد – أ Nicholson Reynold. A
- الصوفية في الإسلام. ترجمة وتعليق نور الدين شريبة. مكتبة الخانجي مصر عام ١٩٥١ م.



- في التصوف الإسلامي وتاريخه. تعريب وتعليق أبو العلا عفيفي. القاهرة عام ١٩٤٧ م.

- الغزالي، حامد:
  - إحياء علوم الدين. تحقيق د. بدوي طبانة. الحلبي. عام ١٩٥٧ م.
  - روضة الطالبية. تحقيق الشيخ محمد مصطفى أبو العلا. مصر عام ١٩٧٢ م.
  - مشكاة الأنوار. تحقيق د. أبو العلا عفيفي. الدار القومية للطباعة والنشر مـصر عـام ١٩٦٤ م.
  - المنقذ من الضلال. تحقيق د. عبد الحليم محمود. الطبعة السابقة. مصر ١٩٧٢ م.

المراجع الأجنبية:

- A.J. Arberg: Safism, London, 1972.
- Macdonald: Development of Muslem theology, London.
- Nicholson: The Idea of personality in Sufism, Cambridge, 1923.
- M. Smith: Readings from the Mgstics of Is lam.
- Encye lopedia of Religion a Ethics.
- Encyclopedia of Islam (Leiden), 1936.